الخيانة في القرآن الكريم
دراسة موضوعية تحليلية

الأستاذ الدكتور
رمضان خميس زكي الغريب
أستاذ التفسيروعلوم القرآن المشارك
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، محمد (ﷺ) وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد. .

.

تعيش أمتنا اليوم مرحلة مفصلية من مراحل حياتها، ومحنة من محن الزمن، تألب عليها الأعداء وخانها الدون من الأبناء، فهي لا تقوم في مكان إلا تعثرت في مكان، ولا تتماسك في ناحية إلا وانكفأت في ناحية، فهي تنادي الأصفياء من أبنائها، والصادقين من الأحرار في ميدان الحياة أن هبوا لنجدتي واستيقظوا لغوثي، فإذا قضيت فلا في العيش خير ولا في الدنيا هناء، لا لأبنائي ولا للأحرار من بني البش، فنحن أمة الرسالة، ودعاة الخير وهداة البشر، كل البشر لا فرق بين لون ولون ولا جنس وجنس، بل المعيار الثابت والقانون الحاكم، الذي أمرنا به، ودعينا إليه: (كونوا قوامين لله شهداء بالقسط)، (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله)،

فتلك دراسة مبسطة عن مفردة الخيانة في القرآن الكريم، سرت فيها على المنهج الاستقرائي والاستنباطي، بحصر الآيات واستنباط دلالاتها حسب موضوعها، وتصنيفها حسب موقعها من الموضوع القرآني، وجاء هيكلها في خمسة مباحث تحت كل مبحث عدد من المطالب على النحو الآتي:

المبحث الأول: دلالات الخيانة في القرآن:

المطلب الأول: الدلالة اللغوية.

المطلب الثاني: الدلالة الاصطلاحية.

المطلب الثالث: الخيانة في الاستعمال القرآني.

المطلب الرابع: الألفاظ ذات الصلة.

المبحث الثاني: أنواع الخيانة في القرآن:

المطلب الأول: خيانة الله ورسوله.

المطلب الثاني: خيانة الدين.

المطلب الثالث: خيانة العِرْض.

المطلب الرابع: خيانة النفس والجوارح.

المطلب الخامس: خيانة الأمانة.

المطلب السادس: خيانة العهد.

المبحث الثالث: طريقة التعامل مع الخائنين:

المطلب الأول: عدم المدافعة عنهم

المطلب الثاني: طرح عهودهم

المبحث الرابع: عاقبة الخائنين:

المطلب الأول: حرمان الهداية إلى الحق.

المطلب الثاني: حرمان محبة الله.

المطلب الثالث: إبطال كيدهم.

المطلب الرابع: الإهلاك.

المبحث الخامس: آثار الخيانة على الفرد والمجتمع.

المطلب الأول: على الفرد.

المطلب الثاني: على المجتمع.

أهم النتائج والتوصيات.

المراجع والمصادر.

المبحث الأول: دلالات الخيانة في القرآن

في هذا المبحث نتناول معنى الخيانة في اللغة، وفي الاصطلاح، وفي الاستعمال القرآني، ونعرج على الألفاظ المقاربة ذات الصلة بمفردة الخيانة في القرآن الكريم؛ إيضاحا للقواسم المشتركة، والدوائر الدلالية بين لفظة الخيانة وتلك الألفاظ، ونتناول ذلك على النحو الآتي:

المطلب الأول: الدلالة اللغوية.

دارت دلالة كلمة الخيانة ومادتها في اللغة على معاني: التنقص، والتعهد، والتغير، والمسارقة، والمتتبع للجذر اللغوي للكلمة يجدها لا تخرج عن ذلك، كما سيأتي في بيان تعريف اللغويين لها، والخيانة خلاف الأمانة، ويقال للرجل خائن وللمرأة خائنة، والتاء فيها للمبالغة، مثل علّامة ونسّابة، وهي تدخل في أشياء سوى المال.

قال صاحب تهذيب اللغة: (خانه الدهر والنعيم خونا وهو تغير حاله إلى شر منها.

قال: وخائنة الأعين: ما تخون به من مسارقة النظر إلى ما لا يحل له. قال: وإذا نبا سيفك عن الضريبة فقد خانك. قال: وكل ما غيرك عن حالك فقد تخونك. [١]

وقد يكون التخون بمعنى التنقص، . . ويقال: تخونته الدهور وتخوفته أي: تنتقصه، فالتخون له معنيان: أحدهما التنقص والآخر التعهد. ومن جعله تعهدا جعل النون مبدلة من اللام. ويقال: رجل خائن وخائنة إذا بولغ في وصفه بالخيانة. [٢]

وقال أبو هلال العسكري: (الخائن الذي ائتمن فأخذ، والسارق من سرقك سرا بأي وجه كان، يقال: كل خائن سارق، وليس كل سارق خائنا. [٣]

والخلاصة: أن هناك علاقة بين تلك المعاني والدلالات التي شملتها مادة الخيانة، فهي تلتقي مع التغير في معنى أن الخيانة انتقال من حال الأمانة والاطمئنان إلى حال أخرى لا أمانة فيها ولا ثقة، وتلتقي بالتنقص في جانب أن الخيانة فيها انتقاص لحق المؤتمن، وتلتقي بالسرقة في جانب أن الخيانة أخذ لغير الحق، ومسارقة متلفتة لمن ائتمنه واطمئن إلى سلامة مقصده وأمانته.

---

١ - تهذيب اللغة، للأزهري: (٣/ ٢٥).

٢ - تهذيب اللغة: (٧/ ٢٣٧) وانظر: لسان العرب: (٧/ ٢٨٥)، أساس البلاغة: (١٧٨)، المغرب في ترتيب المعرب (١/ ٢٧٥)، المعجم الوسيط: (١/ ٢٦٣)، مختار الصحاح لمحمد الرازي: (١/ ١٩٦)، المغرب: (٢/ ١٧٢)، العين للخليل بن أحمد: (١/ ٣٣٤)، المحيط في اللغة لابن عباد (١/ ٣٧٧).

٣ - الفروق اللغوية للعسكري: (١/ ٢٢٨).

المطلب الثاني: الدلالة الاصطلاحية

والخيانة في الاصطلاح تعني عدم النصح، وترك الأمانة، وتعني النفاق، والتفريط في الأمانة، وتكون في الحقيقة والمجاز، وتكون في المال وغيره، لكنهم فرقوا بين الخيانة والنفاق بأن الخيانة تكون في العهد والأمانة، والنفاق يكون في الدين.

قال الراغب الأصفهاني: (الخيانة تعني التفريط في الأمانة، والخيانة والنفاق واحد، لكن الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة، والنفاق اعتبارا بالدين، ثم يتداخلان. [١]

وفرقوا بين الخيانة والاختيان بأن الخيانة خلاف الأمانة، ومخالفة الحق في السر، والاختيان يكون أمرا نفسيا يسبق الخيانة ويهيئ الخائن لها.

كما قال الفيروز آبادي في البصائر عن الخيانة هي: (أَن يؤتمن الإِنسان فلا ينصح، والاختيان مراودة الخيانة، وقد قال تعالى: {عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ}، ولم يقل: تخونوا أَنفسكم، لأَنه لم يكن منهم الخيانة، بل كان منهم الاختيان فالاختيان تحرّك شهوة الإِنسان لتحرِّي الخيانة). [٢]

المطلب الثالث: الخيانة في الاستعمال القرآني

أما الاستعمال القرآني لمادة الخيانة فيمكن أن نتتبعه من خلال رصد الآيات الكريمة التي تناولتها، وتتبع دلالتها عبر ورودها.

فقد وردت المفردة في القرآن الكريم ست عشرة مرة، بالصور الآتية: (خان، خانوا، أخنه، تخونوا، تختانون، يختانون، خيانة، خيانتك، الخائنين، خائنة الأعين، خوان)[٣]

ونلاحظ على المادة أنها أتت بلفظ الماضي والمضارع، والمصدر، واسم الفاعل، وصيغة المبالغة، ووردت مضافة ومقطوعة عن الإضافة، وكانت إضافتها إلى ضمير المخاطب، وإلى الاسم الظاهر، ووردة مفردة ومجموعة، ووردت مسندة إلى المفرد والجماعة، ووردت المادة مسندة إلى المذكر والمؤنث.

كما وردت مضافة إلى البشر بأصنافهم.

ولهذا الورود دلالات لا تخطئها العين العابرة، فضلا عن الراقبة المتأملة، ويمكن أن نشير إلى تلك الدلالات في النقاط الآتية:

---

١ - المفردات في غريب القرآن: ٣٠٥، والتوقيف على مهمات التعاريف: ١٦٢.

٢ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (٢/ ٥٨٢)، المفردات في غريب القرآن: ٣٠٥.

٣ - انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة: خون.

١- ورودها بلفظ الماضي والمضارع يشير إلى أنها موجودة في كل زمان ومكان؛ إذ هي من خصائص بعض النفوس البشرية الموجودة في كل زمن ولا ينفرد بها عصر دون عصر.

٢- ورودها مسندة إلى المفرد والجمع يشير إلى أن الخيانة قد تكون من شخص، وقد تكون من مجموعة من الناس.

٣- ورودها بصيغ اسم الفاعل وصيغة المبالغة يشير إلى أنها تختلف من شخص إلى شخص، ومن وقت إلى وقت، فقد تكون الخيانة في صورة واضحة يسيرة، وقد تكون في صورة معقدة مركبة تشترك فيها أيدي وتتآمر بها مؤسسات وجهات، تلتقي على الشر، وتتوحد على الإثم والبغي والعدوان.

٤- أنه يقوم به أفراد وجماعات، ورجال ونساء يجمعهم قاسم مشترك، وهدف واحد، هو الرغبة في الانتقام من خصم مشترك، وعدو واحد فيجتمعون عليه، لا فرق بين رجل وامرأة وفرد ومجموعة.

٥- أنه وقع في الفترة المكية والفترة المدنية، وإن كان وقوعه في الفترة المكية لا يقارن بوقوعه في الفترة المدنية؛ فقد وقع في الآيات المكية ثلاث مرات، وفي الآيات المدنية ثلاث عشرة مرة، وهذا يشعر بالفرق الواضح بين مجتمع تحكمه أخلاق إنسانية مجتمعية ثابتة وإن اختلفتَ معها في قبولها ورفضها، وبين مجتمع يجمع أخلاطا من الناس، فتزداد فيه صور الخيانة وأنواعها، وينبغي أن نستصحب في ذلك طبيعة المجتمع العربي في مكة، الذي يقوم على أخلاق وأسس إنسانية ثابتة، يقبل منها ما يقبل، ويرد منها ما يرد، ومجتمع في المدينة يجمع أطيافا من اليهود أثروا في نسيجه الاجتماعي، وتركيبه القبلي، حتى خص القرآن الكريم ملامح ثابتة وقضايا أساسية في المجتمع المدني تختلف تماما عن القضايا التي كان يعالجها في المجتمع المكي.

الاستعمال القرآني لمفردة الخيانة

وقد ورد الاستعمال القرآني للفظة الخيانة ومادتها على خمسة أوجه، وهي:

(الأَوّل في الدّين والدّيانة: ومنه قوله تعالى: {وتخونوا أَمَانَاتِكُمْ}.

الثاني في المال والنّعمة: ومنه قوله تعالى: {وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً}.

الثالث: في الشرع والسنَّة، ومنه قوله تعالى: {وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ الله مِن قَبْلُ} أَي إِن تركوا الأَمانة في السُّنَّة فقد تركوها في الفريضة.

الرّابع: الخيانة: بمعنى الزّنى، ومنه قوله تعالى: {وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخائنين} أَي الزَّانين.

الخامس: بمعنى نَقْض العهد والبَيْعَة، ومنه قوله تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً} أَي نقضَ عهد.)[١]

وقد أيد المفسرون كثيرا من تلك المعاني على تباين في تناولهم، واختلاف في مشاربهم[٢]

المطلب الرابع: الألفاظ ذات الصلة

لبيان الدلالة الكاملة لمفردة من مفردات اللغة يتوجب البحث عن مقارباتها ومرادفاتها حتى تتضح دوائر الاشتراك وقواسم الدلالة للكلمة، بما يزيدها بيانا ووضوحا، وكذلك لتبين مفردة في القرآن ينبغي تتبع مقارباتها ومرادفاتها، ومن هنا نتتبع بعض الألفاظ المقاربة لمفردة الخيانة في القرآن الكريم، ومن خلال التتبع نجد أن من هذه الألفاظ ما يأتي: المكر، الخداع، الكيد، السرقة.

المكر: من الألفاظ المقاربة للخيانة لفظة المكر، فالمكْر: (صرف الغَيْرِ عمَّا يقصده بنوع من الحيلة. . . . والمكْر ضربان: محمود، وهو: ما يُتَحرّى به أَمر جميل، وعلى ذلك قوله تعالى: {وَمَكَرَ الله والله خَيْرُ الماكرين}، ومذموم وهو ما يُتحرّى به فعل ذميم، نحو قوله تعالى: {وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ}.)[٣]

النوع المقارب للخيانة بداهة هو المكر المذموم، وقد ورد الحديث عنه في القرآن الكريم في صورة واضحة بينة.

ورود المكر في القرآن الكريم:

وقد ورد في القرآن الكريم الحديث عن المكر والماكرين (أربعا وأربعين مرة)[٤]، شملت الفترتين المكية والمدنية، فورد الحديث عنه في الفترة المكية ستا وثلاثين مرة، وفي الفترة المدنية ثماني مرات.

وقد كان وروده بصيغ: الماضي والمضارع، والمصدر، واسم الفاعل، ووردت المادة مسندة إلى المخاطب والغائب، والمتكلم، والمذكر والمؤنث، وورد مضافا ومقطوعا عن الإضافة.

كما ورد مضافا إلى البشر بأصنافهم السابقة، ومضافا إلى الله (تعالى).

ومن خلال هذا الرصد يمكن أن نتلمس الملامح الآتية:

---

١ - المفردات في غريب القرآن: (٦١٠). اللباب في علوم الكتاب: (٩/ ٤٩٧)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (٢/ ١٥٢).

٢ - انظر: اللباب في علوم الكتاب: (٣/ ٣٠٧)، مفاتيح الغيب: (٥/ ٢٧٠)، جامع البيان: (١١/ ٢٨٧).

٣ - المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٧٢)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤/ ٥١٦).

٤ - انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: مادة مكر.

١- أن المكر حادث في بداية الدعوة وأثنائها، ومستمر في الحياة ما بقي على الأرض بشر وما كان على الأرض حياة وأحياء.

٢- أنه وقع في الماضي ويقع في الحاضر وسيقع في المستقبل، وكأنه لازمة من لوازم صنف من البشر، تملكه الضعف، ولم يقو على المنافسة الشريفة والخصومة النبيلة، خصومة الفرسان النبلاء، والأبطال الشجعان، على الرغم مما يكون معهم من خلاف، فيلجئون إلى المكر والخديعة، والكيد والمراوغة، (وقد مكر الذين من قبلهم)، النحل: ٢٦.

٣- أنه يقوم به أفراد وجماعات ورجال ونساء يجمعهم قاسم مشترك وهدف واحد، هو الرغبة في الانتقام من خصم مشترك، وعدو واحد فيجتمعون عليه، لا فرق بين رجل وامرأة وفرد ومجموعة.

٤- أن ورود لفظة المكر ومشتقاتها في الفترة المكية أكثر على عكس ما قد يتوقع بعض الناظرين، اعتمادا على فكرة أن المكر يقوم به الضعفاء في فترة ازدهار الدولة والدولة كانت في المدينة والدعوة كانت في مكة فيتوقع أن يكثر في المدينة كما كثر النفاق؛ لقوة الدولة وظهور سلطانها، لكن العجيب أن وروده في الفترة المكية أكثر وهذا دليل على ضعف الماكرين لا على قوتهم كما سيأتي، وكما هو واضح من وصف الماكرين في كل مدينة ب: (أكابر مجرميها).

٥- أن الله يمكر بالماكرين، ولا يدعهم يفسدون في الأرض بل يأتي بنيانهم من القواعد (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) سورة: النحل: (٢٦).

٦- أن مكر الماكرين مرصود ومكتوب: (إن رسلنا يكتبون ما تمكرون)، يونس: ٢١.

٧- أن المكر من سنن الله في الصراع بين الحق والباطل على كر الأزمان ومر الأعصار، وأن الله (تعالى) غير غافل عن مكرهم، وأنه عالم بما يبيتون، وأنه يمكر بهم مكرا يليق بذاته (تعالى): (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)، الأنفال: ٣٠.

٨- أن المجرمين يمكرون بكل ما أوتوا من قوة (ومكروا مكرا كبارا) نوح: ٢٢.

٩- ويمكرون في الليل والنهار، (بل مكر الليل والنهار)، سبأ: ٣٣.

١٠- وأن مكرهم شديد: (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال)، إبراهيم: ٤٦.

١١- أن مكر الماكرين إلى بوار: (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ)، فاطر: (١٠)

١٢- المكر يكون له رأس تدير معركته، ومجموعة (رهط) يجتمعون على هدف واحد، وإن كانوا في الأصل متفرقين، يقومون على الفساد والإفساد؛ لأنهم لا يعملون في جو طيب ولا صحيح، يحلفون على الكذب، ويقسمون على الباطل، لكن عاقبة مكرهم دمارهم، ومن لف لفهم وشايعهم، وساندهم وأيدهم، ثم يكونون آية لمن حولهم ومن بعدهم، ثم ينجي الله المؤمنين.

١٣- أن الله (تعالى) يتدخل لحماية عبده الذي مكر به (فوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآَلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)، غافر: (٤٥).

الكيد: ومن الألفاظ المقاربة للخيانة لفظة الكيد، يقول صاحب مقاييس اللغة: (الكاف والياء والدال أصلٌ صحيح يدلُّ على معالجةٍ لشيء بشدّة، ثم يتّسع الباب، وكلّه راجعٌ إلى هذا الأصل. قال أهلُ اللُّغة: الكيد: المعالجة. قالوا: وكلُّ شيءٍ تُعالِجُه فأنت تَكِيدُه. هذا هو الأصل في الباب، ثم يسمُّون المكر كيداً. قال الله تعالى: {أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً} [الطور ٤٢].)[١]

(والكيد الخبث والمكر كاده يكيده كيدا ومكيدة وكذلك المكايدة والكيد الاحتيال والاجتهاد وبه سميت الحرب كيدا)[٢]. والكَيْدُ: (التدبير بباطل أو حقٍّ" والكيد: الحرب: " غزا النبي صلى الله عليه وسلم ولم ير كَيْداً)[٣].

وكاده: أراده بسوء. وبه فسر قوله تعالى لأكيدن أصنامكم. وكيد الله للكفار هو استدراجهم من حيث لا يعملون. والمكايدة: المخاتلة.)[٤]

ورود الكيد في القرآن الكريم:

وقد ورد لفظ الكيد في القرآن الكريم (خمسا وثلاثين مرة)[٥]، في العهد المكي والعهد المدني، ووردت بصور(كدنا، أكيد، لأكيدن، فيكيدوا، يكيدون، كيدون، كيدوني، كيد، كيدكم، كيدكن، كيده، كيدهن، ككيدي، المكيدون).

---

١ - مقاييس اللغة: (٥/ ١٢١)، العين للخليل بن أحمد: (١/ ٤٤٨)، المحيط في اللغة لابن عباد: (٢/ ٦٠)، أساس البلاغة (ص: ٥٥٤).

٢ - لسان العرب (٣/ ٣٨٣)، مقاييس اللغة (٥/ ١٢١).

٣ - تهذيب اللغة للأزهري (٣/ ٣٩٧).

٤ - تاج العروس للزبيدي: (٩/ ٢١٠).

٥ - انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة: كيد.

ويلاحظ من ورود المادة في القرآن الكريم بتلك الصيغ ما يأتي:

١- أن المادة وردت بصيغة الماضي والمضارع والأمر، والمصدر، واسم المفعول، وفيها دلالة على وقوع الكيد في الماضي والحاضر والمستقبل.

٢- أن ورود المادة بصيغة الأمر فيه دلالة على تحدي أصحاب الحق للكائدين، وأنهم لا يرهبونهم، ولا يخشون جانبهم؛ لأن سنة الله في الكائدين واضحة معلومة، بل فيها دلالة على تحدي الله (تعالى) نفسه لهؤلاء المغرورين المخدوعين بكيدهم، وأنه تعالى يهددهم بأنه هو بذاته سيتولى الكيد لهم، والإغراء بهم، وفي ذلك من الترهيب من الكيد ما فيه لمن كان له قلب.

٣- أن الكيد يستعمل في الخير والشر، فكيد الله (تعالى) لا يحمل إلا على الخير

٤- أن الكيد ورد مضافا إلى الفرد والجمع وفيه دليل على أنه يقوم به أفراد ومجموعات ومؤسسات.

٥- أنه ورد مضافا إلى الذكور والنساء، وفيه دلالة على أن الكيد لا يتوقف على الجنس بل يشترك فيه الرجال والنساء، وورود الكيد مضافا إلى النساء ووصفه بما وصف به دليل على تميزهن في الكيد أكثر من الرجال؛ لأنه يتناسب مع ما جبلن عليه.

الغَل: ومن الألفاظ المقاربة للخيانة لفظة: الغل والمادة تدل على التداخل والتخلل وعدم الوضوح، تقول كتب اللغة: (الغَلَلُ أصله: تدرّع الشيء وتوسّطه، ومنه: الغَلَلُ للماء الجاري بين الشّجر، وقد يقال له: الغيل، وانْغَلَّ فيما بين الشّجر: دخل فيه، فَالْغُلُّ مختصّ بما يقيّد به، وجمعه أَغْلَالٌ، وغُلَّ فلان: قيّد به)[١]

وقد نص بعضهم على دلالته على الخيانة صراحة كقول الراغب في المفردات، وقد أورد حديث: («لا إِغْلَالَ ولا إسلال» [٢] وفسره بقوله: (لا خيانة ولا سرقة. وقوله عليه الصلاة والسلام: «ثلاث لا يَغِلُّ عليهنّ قلب المؤمن» [٣] أي: لا يضطغن. وروي: «لا يُغِلُّ» أي: لا يصير ذا خيانة، وأَغَلَّ الجازر والسالخ: إذا ترك في الإهاب من اللّحم شيئا، وهو من الْإِغْلَالِ، أي:

---

١ - المفردات: ١/ ٣٦٢.

٢ - مصنف ابن أبي شيبة: (ج ١٤/ ص ٤٤١).

٣ - مسند الصحابة في الكتب التسعة: (ج ٤٢/ ص ٤)، سنن الدارمي: (ج ١/ ص ٨٦)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعقيبه على الحديث: سنن الدارمي - (ج ١/ ص ٨٦)

الخيانة، فكأنّه خان في اللّحم وتركه في الجلد الذي يحمله. والغُلَّةُ والغَلِيلُ: ما يتدرّعه الإنسان في داخله من العطش، ومن شدّة الوجد والغيظ.)[١].

وواضح من خلال الدلالة اللغوية لجذر الكلمة وتقلباتها علاقتها بالخيانة؛ فهي تشترك معها في الخفية والتسلل، والخديعة والغرر.

وقد عقب صاحب تاج العروس على قوله (تعالى): " وما كان لنبي أن يغل " بقوله: (أي يخون أي ينسب إلى الغلول وهي قراءة أصحاب عبد الله يريدون يسرق قاله ابن السكيت ونقله الفراء أيضا وقيل: معناه على هذه: لا يخونه أصحابه أو لا يخان أي لا يؤخذ من غنيمته)[٢]

وفرق بعضهم بين الغلول والإغلال بأن (الغلول في المغنم خاصة والإغلال عام) [٣]

ورود لفظة الغل في القرآن الكريم:

وردت المادة في القرآن ست عشرة مرة ما يخص المعنى الذي يتناسب مع ما نتناوله تكرر ثلاث مرات، وقد ورد بلفظ الماضي (غل)، والمضارع (يغلل).

الخداع: ومن الألفاظ المقاربة للخيانة الخداع، (وهو إِنزال الغير عمّا هو بِصَدَده بأَمر يبديه على خلاف ما يخفيه.)[٤]

ورود لفظ الخداع في القرآن الكريم:

وورد لفظ الخداع ومادته في القرآن سبع مرات بصيغ: (يخدعونك، يخدعون، يخادعون، خادعهم). وفي ورود لفظ الخداع في القرآن الكريم بتلك الصور دلالات منها:

١- أنها وردت بصيغة المضارع ولم يرد بلفظ الماضي ولا الأمر، وفي ذلك تنبيه على التيقظ لمؤامرات الخداع قبل وأثناء حدوثه، ولم يرد بلفظ الماضي حتى لا يكون تنبيها للأمر بعد وقوعه، وبدهي لم يرد بلفظ الأمر.

٢- أنه وردت بلفظ الفعل والمفاعلة، وهذا يدل على أن هذا الفعل يكون من طرفين، وكل حسب قدرته في المخادعة.

٣- وقد ورد اللفظ مضافا إلى الله تعالى وإلى البشر، وفي ذلك دلالة على أن من الخداع ما يكون لنصرة الحق، وفي تسمية صنيع الله بالمشركين مخادعة مجاز.

---

١ - المفردات في غريب القرآن (ص: ٦١١).

٢ - تاج العروس (ص: ٧٣٨٣).

٣ - المغرب: (٤/ ٩٧)، لسان العرب: (١١/ ٤٩٩).

٤ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (٢/ ٥٢٩)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٧٦)، المحكم والمحيط الأعظم: (١/ ٤٢)، المخصص لابن سيده: (١/ ٢٤١)، تاج العروس (ص: ٥١٧٤).

٤- وفي ورود اللفظة بصيغة الجمع في معظم المواطن إشارة إلى أن الخداع والمخادعة تكون غالبا من فئات ومجموعات.

والعلاقة بين الخيانة والخداع في مساحة الإخفاء وإيهام غير الحقيقة، فهو يصرفه عن الأمر الحقيقي بتمويه يدعيه حتى يصل إلى مراده.

السرقة: ومن الألفاظ المقاربة للخيانة في معنى من المعاني لفظ السرقة، وهي في اللغة: (أخذ الشيء من الغير على وجه الخفية، وفي الشريعة في حق القطع: أخذ مكلف خفية قدر عشرة دراهم مضروبة محرزة بمكان أو حافظ، بلا شبهة)[١]

والاسترَاق: الختل كالذي يسترق السمع أي يقرب من السماء فيستمع ثم يذيع. . ، وكالكتبة يسترقون من بعض المحاسبات.)[٢]

ورود لفظة السرقة في القرآن الكريم:

وورد لفظ السرقة في القرآن الكريم تسع مرات، وورد بصيغ: (سرق، يسرق، يسرقن، استرق، السارق، السارقة، سارقون).

وفي ورود اللفظ بتلك الصيغ دلالات منها:

١- أنها وردت بلفظ الماضي والمضارع ولم ترد بلفظ الأمر بداهة، وفي ذلك دلالة على وجودها في الماضي والحاضر والمستقبل، ما وجد البشر على وجه البسيطة.

٢- ورودها مضافة إلى المذكر والمؤنث فيه دلالة على أنه يقوم بها رجال ونساء، ولا يختص بها جنس دون جنس.

٣- ورودها بلفظ المفرد والجمع في إشارة إلى أنها تقع من الفرد والمجموع.

٤- ورودها بلفظ الفعل والافتعال في إشارة إلى تنوعها وحاجة بعض أنواعها إلى الافتعال.

والعلاقة بين الخيانة والسرقة واضحة من ناحية الخفاء، وعدم الوضوح.

النفاق: ومن الألفاظ المقاربة للخيانة لفظ النفاق، وهو: (إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب)[٣]

---

١ - التعريفات للجرجاني (ص: ١٥٦).

٢ - العين، للخليل بن أحمد: (١/ ٣٨٢).

٣ - التعريفات، للجرجاني: (٣١١).

والمادة تدل على الخفاء والإغماض، والانقطاع والذهاب، يقول صاحب البصائر: والنَّفَقُ، يدّل على انْقِطاع الشيء وذَهابِه، وتارةً على إخفاءِ الشيء وإِغْماضِه، وعلى مُضِيّ شيء ونَفاذه، ومنه نَفَقَ البيعُ نَفاقاً: راجَ)[١].

ورود لفظ النفاق في القرآن الكريم:

وقد ورد لفظ النفاق في القرآن الكريم سبعا وثلاثين مرة، بصيغ: (نافقوا، النفاق، نفاقا، المنافقات، المنافقون)[٢]. ويلاحظ أن لفظ النفاق ورد جميعه في السور المدنية، ولم يرد في السور القرآنية كما أكد ذلك بحوث علوم القرآن الكريم

والعلاقة بين الخيانة والنفاق بينة في إظهار المرء خلاف ما يبطن، وإيهام الغير بغير الواقع.

المبحث الثاني: أنواع الخيانة في القرآن:

الراصد لآيات القرآن الكريم يجد أنه بين أنواعا للخيانة متعددة، تحدثت عنها الآيات بوضوح وجلاء، فمنها ما يكون خيانة لله والرسول، ومنها ما يكون خيانة الدين، ومنها ما يكون خيانة للعِرْض، ومنها ما يكون خيانة للنفس والجوارح، ومنها ما يكون خيانة للأمانة، ومنها ما يكون خيانة للعهد، وفي الصفحات الآتية نتناول تلك الأنواع على النحو الآتي:

المطلب الأول: خيانة الله ورسوله

ومن أشد أنواع الخيانة: خيانة الله والرسول؛ ذلك أنها تتعلق بمنبع الهدى ومصدر الإنعام، وتدل على تدني نفسية الخائن؛ فمن يخن الله والرسول لا يؤتمن على شيء، وكيف يؤتمن وقد خان مصدر وجوده في الحياة، والمنعم عليه بها، وخان رسول الحق الذي أنقذه من الضلال إلى الهدى، ومن الشقاء الأبدي إلى السعادة الخالدة، ولقد تعددت أقول المفسرين في بيان المقصود من خيانة الله والرسول، فمنهم من يرى أن المقصود بخيانة الله تعالى والرسول هي كفرهم به وعدم إيمانهم بما بعث به رسوله، وتوحيدهم إياه، واستندوا في هذا إلى سبب نزول الآية الكريمة، فقد قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي السرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين[٣] ، وخيانتهم للرسول هي الغدر به والمكر والخداع له بإظهارهم له بالقول خلاف ما في أنفسهم[٤]

---

١ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (٥/ ١٠٤)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٥/ ١٠٥).

٢ - انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة: نفق.

٣ - تفسير ابن كثير: (٤/ ٩٤).

٤ - تفسير الطبري: (١١/ ٢٨٧).

أو خيانته للرسول أي: (في السعي لحربه ومنابذته)[١]

يقول صاحب الظلال: (لقد خانوا الله فأشركوا به غيره، ولم يفردوه سبحانه بالربوبية، وهو قد أخذ العهد على فطرتهم فخانوا عهده. فإن أرادوا خيانة رسوله- ﷺ- وهم أسرى في يديه، فليذكروا عاقبة خيانتهم الأولى التي أوقعتهم في الأسر، ومكنت منهم رسول الله وأولياءه. . والله «عليم» بسرائرهم «حكيم» في إيقاع العقاب بهم)[٢]

ومنهم من يرى أن المقصود من خيانة الرسول يظهر في نكثهم العهد والبيعة على الإسلام والردّة واستحباب دين آبائهم[٣]

وفي الآية طمأنة للرسول (ﷺ) ومن معه، وضمان لهم بأنهم إِنْ خَانَهُمُ الْأَسْرَى بَعْدَ رُجُوعِهِمْ إِلَى قَوْمِهِمْ وَنَكَثُوا عَهْدَهُمْ وَعَادُوا إِلَى الْقِتَالِ، بِأَنَّ اللَّهَ يُمَكِّنُ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ مَرَّةً أُخْرَى، كَمَا أَمْكَنَهُمْ مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ)[٤]

وفي ذلك طمأنة لكل من وقعت عليه خيانة بأن الله (تعالى) مضت سنته في ذلك بأنه لا يهدي كيد الخائنين، ولا يضيع عمل من وقعت في حقهم تلك الخيانة.

كما يرى بعض المفسرين أن الخيانة المقصودة هنا هي شركهم بالله (تعالى)؛ فَإِنَّهُ خِيَانَةٌ لِلْعَهْدِ الْفِطْرِيِّ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي آدَمَ فِيمَا حَكَاهُ بِقَوْلِهِ: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذرياتهم [الْأَعْرَاف: ١٧٢] الْآيَةَ فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتَقَرَّ فِي الْفِطْرَةِ، وَمَا مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَهِيَ تَشْعُرُ بِهِ، وَلَكِنَّهَا تُغَالِبُهَا ضَلَالَاتُ الْعَادَاتِ وَاتِّبَاعُ الْكُبَرَاءِ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ)[٥]، ومنهم من يرى أن المقصود بخيانة الرسول: (تَرْك سُنَّتِهِ وَارْتِكَاب مَعْصِيَتِهِ ")[٦]. ومن المفسرين من عبر عن تلك الخيانة بالمعصية كما سبق، ومنهم من عبر عنها بالغدر والمكر والخداع، كالطبري في جامع البيان؛ إذ يقول: (وإن يرد هؤلاء الأسارى الذين في أيديكم (خيانتك)، أي الغدر بك والمكرَ والخداع، بإظهارهم لك بالقول خلافَ ما في نفوسهم)[٧].

---

١ - جامع البيان: (١٤/ ٧٥)، تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٢٧)، توفيق الرحمن في دروس القرآن (٢/ ٣١٥).

٢ - في ظلال القرآن (٣/ ١٥٥٤).

٣ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٢٣٩)، جامع البيان ط هجر (١١/ ١٢٠)، لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ٣٢٩)، محاسن التأويل: (٥/ ٣٢٩)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٦٨)، زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٢٢٧)، التفسير المنير للزحيلي (١٠/ ٦٧).

٤ - التحرير والتنوير: (١٠/ ٨١).

٥ - التحرير والتنوير: (١٠/ ٨٢).

٦ - تفسير ابن أبي حاتم: (٥/ ١٦٨٤).

٧ - جامع البيان: (١٤/ ٧٥).

ومنهم من رآها في كذبهم على الرسول، وقولهم له: آمنَّا بك ونشهد أنَّك رسول الله)[١]
ومنهم من رآها في(الْإِخْلَال بِالسِّلَاحِ فِي الْبُعُوثِ)[٢] "
وكل تلك الصور التي ذكرها المفسرون ألوان من الخيانة لله والرسول، وتنوعها لا ينفي بعضها، ولا يخرجها من كونها خيانة لله والرسول.

المطلب الثاني: خيانة الدين

وخيانة الدين من أقبح الخيانات وكل الخيانات قبيحة؛ ذلك أنها خيانة للنعمة التي بدونها لا يكون الإنسان إنسانا، ولا يعيش إلا كما تعيش البهم السائبة، بلا شرع ضابط ولا قانون رابط، يدل المرء على هدى أو يرده عن ردى، وقد رصد القرآن الكريم صورة من أشد صور الخيانة للدين؛ لأنها كانت في بيئة يفترض أن تكون هي الناصر والمعين لنشر الدين ورفع رايته والدعوة إليه. . . لكم (ومن يضلل الله فما له من هاد)، الرعد: ٣٣.
وتلك الصورة كانت في شخص امرأة نبي الله نوح وامرأة نبي الله لوط، إذ قال القرآن عنهما: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين)، (التحريم: ١٠)
والخيانة المذكورة هنا هي خيانة الدين وليست خيانة العرض كما أجمع المفسرون على أنه ما خانت امرأة نبي قط. فالخيانة هنا خيانة (في الدين، وما بغت امرأة النبي قط.[٣]
وقد نص الإمام الماوردي في النكت والعيون على أن خيانتهما كانت في الدين، وأورد صورا أربعة كلها تمضي في نفس الاتجاه، فيقول: في خيانتهما أربعة أوجه:
أحدها: أنهما كانتا كافرتين، فصارتا خائنتين بالكفر، قاله السدي. والثاني: منافقتين تظهران الإيمان وتستران الكفر، وهذه خيانتهما قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين. والثالث: أن خيانتهما النميمة، إذا أوحى الله تعالى إليهما [شيئا] أفشتاه إلى المشركين، قاله الضحاك. و الرابع: أن خيانة امرأة نوح أنها كانت تخبر الناس أنه مجنون، وإذا آمن أحد به أخبرت الجبابرة به، وخيانة امرأة لوط أنه كان إذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف)[٤]

---

١ - الوجيز للواحدي (ص: ٤٤٩).
٢ - تفسير ابن أبي حاتم: (٥/ ١٦٨٤).
٣ - الكشف والبيان: (٩/ ٣٥١).
٤ - النكت والعيون: (٦/ ٤٦).

وفي بناء الآية الكريمة وتركيبها ما يبين شناعة الخيانة في الدين، مهما كانت درجة القرب والصحبة والمعايشة والمعاشرة، كما تبين صيانة الله (تعالى) وحفظه وكرامته للمخانين، وعدم نقصان حقهم، كما تبين أن الجزاء من جنس العمل فكما استقلت المرأتان وتقدمتا في تلك الخيانة حتى عن بنات جنسهما زج بهما القرآن في صفوف الذكور في موطن لا محمدة فيه ولا كرامة، فقال (تعالى) (تحت عبدين من عبادنا صالحين) ولم يقل: تحتهما، (بل أظهر بالوصف العبودية المضافة إليه سبحانه وتعالى والوصف بالصلاح لأن ذلك أفخم، فيكون أشد تأثيراً للمواعظ وأعظم، ودفعاً لأن يتوهم أحد بشيء لا يليق بمقامهما عليهما الصلاة والسلام فقال: (تحت عبدين) أي كل واحدة منهما تحت عبد، وعبر بذلك لأن أثر الناس عند الملك كما تقدم عبيده، ودل على كثرة عبيده تنبيهاً على غناه بقوله: (من عبادنا).

ولما كانت طبقات القرب متفاوتة بحسب الصلاح قال. . . (ادخلا النار) أي مقدماتها من الإصرار على الكفر ثم الإهلاك بعذاب الانتقام في الدنيا وحقيقتها في الآخرة لأن الله أبغضهما لأنهما عدو لأوليائه، وذلك كما قيل

ولما فعلتا فعل الرجال في استقلالهما وعدم عدهما لأنفسهما تبعاً، غلظ عذابهما بالكون مع الرجال في عذابهم فقال دالاً على نفوذ الحكم فيمن هو أقوى منهما بعد نفوذه فيهما: (مع الداخلين) أي الذين هم أعظم منهما ممن لهم وصلة بأهل الله وممن لا وصلة لهم بهم،)[١]

المطلب الثالث: خيانة العرض

جاء الإسلام نقيا صافيا يرقى بالبشرية إلى مدارج السمو الأخلاقي والمادي، ويأخذ بيدها إلى مصاف الإنسانية الحقيقة التي لم تدنسها شهوانية ولم تغبرها أدناس الحياة، فوضع منهاجا سليما لصيانة الإنسان يحفظه من خيانة العرض واختلاس ما ليس له بحق، بداية من الدعوة إلى غض البصر، ومرورا بالنهي عن الاقتراب من الفاحشة، ووصولا إلى بيان بشاعة الوقوع فيها، ووصفها بأنها فاحشة ومقت وساءت سبيلا، وصور القرآن الكريم مشهدا من أدق المشاهد التي تبين طبيعة النفس البشرية وميولها، ومع ذلك صاغه في صورة راقية شفافة، لا تجرح شعورا ولا تهيج ساكنا، وهو موقف زليخا من يوسف، وضمت الآية الكريمة في صدرها نفيا للخيانة، وفي عجزها بيانا لسنة الله (تعالى) في الخائنين، وهي أن الله لا يهدي كيدهم، ولا يبلغهم مرادهم، ولا ينالون أمنياتهم.

فقال تعالى: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)، يوسف: (٥٢)

---

١ - نظم الدرر: (٨/ ٥٧).

أي: (ذلك القول الذي قلته في تنزيهه والإقرار على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالكذب عليه، ولم تقع مني الفاحشة، وأنني راودته، واعترفت بذلك لإظهار براءتي وبراءته، وأن الله لا يوفق أهل الخيانة، ولا يرشدهم في خيانتهم.)[١]

وكما يقول الإمام القرطبي: أي أقررت بالصدق ليعلم أني لم أخنه بالغيب أي بالكذب عليه، ولم أذكره بسوء وهو غائب، بل صدقت وحدت عن الخيانة)[٢]

وقد اختلف المفسرون فيمن قال هذا القول فذهب بعضهم إلى أنه من قول امرأة العزيز، وبعضهم إلى أنه من قول يوسف (عليه السلام)، وواضح من السياق أنه من كلام امرأة العزيز، وكما اختلفوا في ذلك اختلفوا فيمن توجه هذا الكلام (ليعلم) لزوجها أم ليوسف؟، فقالوا: (يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر منِّي إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني. {وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.)[٣].

لقد أبان البيان القرآني عن المشهد بكل خصائصه، واحتفظ بكل شفافية ورقي لا يدغدغ الغرائز، ولا يثير الكوامن، (هذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق هنا بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر. كما يشي الستار الرقيق بما وراءه في ترفع وتجمل في التعبير: أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين}. شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصدقه. لا تبالي المرأة ما وراءها مما يلم بها هي ويلحق بأردانها.)[٤]

تلك منهجية القرآن الكريم في تخلية المجتمع من أدران الجاهلية وتطهيرها من أرجاسها، ولا يتعالى على نوازع النفس البشرية بل يهذبها ويوظفها ويوجهها إلى طريقها الحق، ووجهتها الصحيحة، وما ضلت البشرية وارتكست في حمأتها إلا بعد أن تخلت تعاليم الإسلام وتوجيهاته في حفظ العرض والحفاظ على نقاء الإنسان وطهارته.

---

١ - التفسير الميسر: (ج ٤/ ص ١٥٢). وانظر: البحر المديد - (ج ٣/ ص ٣٩٣)، تفسير ابن كثير - (ج ٤/ ص ٣٩٤).

٢ - الجامع لأحكام القرآن: (ج ٩/ ص ٢٠٩)، تفسير ابن كثير: (ج ٤/ ص ٣٩٤).

٣ - تفسير السعدي: (ج ١/ ص ٤٠٠)، تفسير التستري: (ج ١/ ص ٢٣٦)، تفسير الخازن: (ج ٣/ ص ٢٨٩).

٤ - في ظلال القرآن: (ج ٤/ ص ٣١٥).

المطلب الرابع: خيانة النفس والجوارح

وكما أبان القرآن الكريم عن صور وألوان من الخيانات وبين منهجية التعامل معها تناول خيانة النفس في آيتين كريمتين منه، الأولى في مجال تعامل الزوج مع زوجه في بداية فرض الصيام، والثانية في نهي النبي (ﷺ) عن الدفاع عن الذين يختانون أنفسهم بالسرقة واتهام الغير ظلما وعدوانا، كما في واقعة طعمة بن أبيرق.

لكن كيف يخون الإنسان نفسه أو يختانها؟. قال المفسرون إن خيانة المرء نفسه تكون بتعريضها للعقاب، ونقصان حظها من الثواب.)[١]

ويعلق ابن عرفة على هذا التركيب اللغوي بأنه من باب القلب. . . ؛لأنّ النفس هي الخائنة)[٢]

أو أن المعنى: (يظلمون أنفسهم بالخيانة والسرقة ويرمي بها اليهودي)[٣]

وقد يكون معنى الاختيان إلجاء المرء نفسه إلى الخيانة[٤]، وقد يكون معنى الاختيان للنفس بما يعود عليها من الإثم والعقوبة في الدنيا والآخرة)[٥]، أو: (اتباع النفس هواها ومرادها وترك نصيحتها)[٦]؛ ذلك أن مَنْ قدم على المَعْصِيَة، فقد حَرَمَ نفسه الثَّوَابَ، وأوصَلَهَا إلى العِقَاب، فكان ذلك مِنْهُ خِيَانة لِنَفْسِهِ؛ ولِهَذا المَعْنَى، قيل لِمَن ظَلَم غيره: إنَّه ظلم نَفْسَه.)[٧]

ونلاحظ في تعبير القرآن خاصة في صيغة (تختانون) ما يدل على الافتعال، لأن خيانة المرء نفسه ليست سهلة، بل تحتاج إلى جهد ومشقة؛ لأن الأصل فيه أنه يسعى إلى صلاحها وفلاحها وصيانتها، فعندما يعود الحارس لصا فقد اختان نفسه.

قال ابن قتيبة وطائفة من المفسرين: وجعلوا الإنسان قد خان نفسه، أي ظلمها بالسرقة كما فعل ابن أُبَيْرِق . أو بجماع امرأته ليلة الصيام كما فعل بعض الصحابة . وهذا القول فيه نظر؛ فإن كل ذنب يذنبه الإنسان فقد ظلم فيه نفسه، سواء فعله سراً أو علانية.)[٨]

---

١ - أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير - (ج ١/ ص ١٦٦).

٢ - تفسير ابن عرفة المالكي - (ج ٢/ ص ٥٥١).

٣ - الكشف والبيان - (ج ٣/ ص ٣٨٢)، تفسير الجلالين - (ج ١/ ص ١٢١)، اللباب في علوم الكتاب - (ج ٧/ ص ٧)، تفسير البغوي - (ج ٢/ ص ٢٨٤).

٤ - التحرير والتنوير: (ج ٢/ ص ١٨٣).

٥ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - (ج ٢/ ص ١٣٠).

٦ - تفسير السلمي - (ج ١/ ص ١٥٩).

٧ - اللباب في علوم الكتاب - (ج ٧/ ص ٧)، تفسير الألوسي - (ج ٤/ ص ٢١٩)، تفسير البيضاوي - (ج ١/ ص ٢٤٩)، تفسير السراج المنير - (ج ١/ ص ٢٦٥).

٨ - مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) - (ج ٣/ ص ١٨١).

إن القرآن الكريم حفظ نفس العبد حتى من نفسه، ونصحها حتى من ذاته؛ لأنها ثمينة عند الله فالإنسان هو خليفة الله في أرضه، والقائم بشرعه والمتعبد له به، فنهاه عن تعريضها للظلم، أو تعرضها للعقاب والحساب، أو الدفاع عن الظالم، فكيف بمن يعين الظالم ويسعى له، ويحلل له فعله، ويبرر له ظلمه، بل يخرج له هذا الظلم بطريقة شرعية.

المطلب الخامس خيانة الأمانة

اختلف المفسرون في بيان المقصود من خيانة الأمانة، بل اختلفوا في بيان وتحديد مفهوم الأمانة، فمنهم من يرى أن الأمانة: (هِيَ مَا يَخْفَى عَنْ أَعْيَنَ النَّاسِ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ)[١]

ومنهم من يرى أنها (: الْأَعْمَالُ. . . . وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى الْأَمَانَاتِ هَاهُنَا: الدِّينُ)[٢]، كما قال ابن أبي حاتم أيضا: (أَمَانَاتكُمْ: دِينكُمْ ")[٣]

وعن ابن عباس في قوله: (وتخونوا أماناتكم): الأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد يعني: الفريضة: يقول: لا تخونوا يعني: لا تنقضوها.)[٤]

ومنهم من رآها في الغنيمة، ومنهم من جعلها في كل ما يؤتمن عليه الإنسان، يقول الإمام الماوردي: ({وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ} فيه ثلاثة أوجه: أحدها: فيما أخذتموه من الغنيمة أن تحضروه إلى المغنم. الثاني: فيما ائتمن الله العباد عليه من الفرائض والأحكام أن تؤدوها بحقها ولا تخونوها بتركها. والثالث: أنه على العموم في كل أمانة أن تؤدى ولا تخان)[٥]. ويرى الإمام السمعاني أنها (فِي جَمِيع الْأَمَانَات، نهي الْعباد عَن الْخِيَانَة فِي الْأَمَانَات، وَتدْخل فِي الْأَمَانَات الطَّاعَات؛ فَإِن الطَّاعَات أمانات عِنْد الْعباد على معنى أَنَّهَا بَينهم وَبَين رَبهم أدوها أَو لم يؤدوها.)[٦]

ومنهم من جعل الأمانة هي النفس والأموال، بكل ما تشتمل عليه، (فعلى ذلك أنفسكم وأموالكم لله عندكم أمانة استحفظكم فيها، فإن استعملتموها في غير ما أذن لكم فيها، خنتم الله والرسول فيها، فتخونوا أماناتكم التي لكم عند الله إذا ضيعتم الأمانة؛ كقوله: (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم).

---

١ - جامع البيان: (١١/ ١٢٤).

٢ - جامع البيان: (١١/ ١٢٥).

٣ - "تفسير ابن أبي حاتم: (٥/ ١٦٨٥).

٤ - تفسير ابن أبي حاتم للإمام الرازي (٦/ ٢٩٠).

٥ - النكت والعيون: (٢/ ٣١١)، محاسن التأويل: (٥/ ٢٧٩)، وانظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٥٦).

٦ - تفسير السمعاني (٢/ ٢٥٩).

وقال بعضهم: قوله: (وتخونوا أماناتكم)، أي: ولا تخونوا أماناتكم التي فيما بينكم. وأصله: أنه - عز وجل - امتحنهم فيما امتحنهم لمنافع أنفسهم ولحاجتهم، فيصيرون فيما خانوا فيما امتحنهم كأنهم خانوا أنفسهم وخانوا أماناتهم؛ كقوله: (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) . . . وقوله - عز وجل -: (وأنتم تعلمون). أن أنفسكم وأموالكم ليست لكم، إنما هي لله عندكم أمانة، فلا تخونوا فيها.)[١]

ومنهم من ترقى في بيان الأمانة إلى درجة الحديث عن الأعمال والأحوال، بأن (الخيانة في الأعمال: الدعوى فيها بأنها من قبلك، دون التحقيق بأن منشئها الله.

والخيانة في الأحوال ملاحظتك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق، إن لم يكن استهلاكك في وجود الحق. وإذا أخللت بسنة من السنن أو أدب من آداب الشرع فتلك خيانة الرسول ﷺ.

والخيانة في الأمانات- بينك وبين الخلق- تكون بإيثار نصيب نفسك على نصيب المسلمين، بإرادة القلب فضلا عن المعاملة بالفعل.)[٢]

ومن بدائع أهل التفسير وروائعهم حقا أنهم لمحوا مسؤولية الأمة عن ريادتها للبشرية، وتكليفها بقيادة الأمم إلى توحيد الله تعالى، وهدايتها إلى ربها، ودلالتها عليه، وهذا ما يعبر عنه في عصرنا بالشهود الحضاري؛ إذ جعلوا معنى الأمانة التي كلف الله تعالى بها المسلمين أن مكلفون بذلك ومؤهلون له، بل حددوا مؤهلات هذا الشهود، ومقومات تلك المسؤولية، بأن الأمة وسط، وعدل ومؤتمنة على البشرية بأن الله تعالى جعل (هذه الأمة وسطا عدلا بقوله: (جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)؛ فكأنه قال: يا أيها الذين آمنوا قد جعلكم الله أمناء عدلا وسطا، فلا تخونوا الله فيه؛ كقوله: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم. . .) الآية، وقال: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)، وقال. (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض. . .)، أخبر أنه ألزمهم الأمانة - أعني: البشر - دون ما ذكر من الخلائق فمنهم من ضيع تلك الأمانة؛ من نحو المنافقين والمشركين، وخانوا فيها، فلحقهم الوعيد بالتضييع.)[٣]

وفي هذا يقول صاحب الظلال (رحمه الله): (إن التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة في الأرض خيانة لله والرسول. فالقضية الأولى في هذا الدين هي قضية: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». .

---

١ - النكت والعيون (٢/ ٣١١).

٢ - لطائف الإشارات: (١/ ٦١٨).

٣ - تأويلات أهل السنة: (٥/ ١٨٣).

قضية إفراد الله- سبحانه- بالإلوهية والأخذ في هذا بما بلغه محمد- ﷺ- وحده. . . . . - ومن هنا كان التخلي عنها خيانة لله والرسول يحذر الله منها العصبة المسلمة التي آمنت به وأعلنت هذا الإيمان فأصبح متعينا أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعي والنهوض بتكاليف هذا الجهاد في الأنفس والأموال والأولاد.

كذلك يحذرها خيانة الأمانة التي حملتها يوم بايعت رسول الله- ﷺ- على الإسلام.

فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان، وليس مجرد عبارات وأدعيات. إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق. إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته، ورد الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء وتأمين الحق والعدل للناس جميعا وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله. .

وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها وخاس بعهده الذي عاهد الله عليه، ونقض بيعته التي بايع بها رسوله.)[١]

وتلك في نظري أهم زاوية من زوايا الأمانة، وأعمق تعريف لها؛ لأنه يشمل كل التعاريف السابقة ويزيد عليها بيان مسؤولية الأمة عن ريادة العالم، وقيامها بمهمتها التي ندبها الله لها.

المطلب السادس: خيانة العهد

لقد رسم القرآن الكريم للبشرية منهاجا من الوفاء، لو اتبعته وسارت به لعزت في الدنيا ونجت في الآخرة، وتوالت وصايا القرآن الكريم مشددة على الوفاء بالعهد والبعد عن خيانته، فقال تعالى: (. . وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)، الإسراء: [٣٤]

وحذرهم من نقضه والانقلاب عليه، ونبههم إلى أن هذا العهد عهد مع الله، وأن الله كفيل عليهم فقال تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)، النحل: (٩١)

ووصف المؤمنين المفلحين بأنهم: (لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)، المؤمنون: (٨)

وفي خيانة العهد تحدث القرآن الكريم مبينا ضرره وخطره ومنهاجية التعامل معه، كما يرد في عاقبتهم ومنهاجية التعامل معهم، وور هذا في قوله تعالى مخاطبا الرسول ﷺ: (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)، وقد نص المفسرون على أن

١ - في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٩٧، ١٤٩٨).

الخيانة هنا خيانة العهد، يقول الإمام الماوردي رحمه الله: (قوله عز وجل) (وإما تخافن من قوم خيانة)، يعني: في نقض العهد.

(فانبذ إليهم على سوآء)، (أي فألق إليهم عهدهم حتى لا ينسبوك إلى الغدر. بهم. والنبذ هو الإلقاء)([1])

لقد ربط القرآن الكريم بين الكفر ونقض العهد والخيانة فيه؛ تفظيعا له، وبيانا لما هو فيه من شر وضرر، فقال تعالى: (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ")، الأنفال: ٥٨.

وبين للنبي أنه إن شعر منهم بالنقض أو بوادره ينبذ إليهم على سواء؛ ذلك أن الله لا يحب الخائنين، حتى ولو كان ذلك الفعل مع الكفار.

وعلى سواء هنا بمعنى البيان والوضوح، ذكر ابن أبي عادل الحنبلي: في الموضع الرابع من مواضع معني كلمة سواء: أنها (بمعنى: البَيَان)[2].

لقد حذر القرآن النبي من خيانة الخائنين، ومكر الماكرين، وبين له أن تلك سمتهم وهذا ديدنهم، فقال له: (وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ)

قال ابن عبَّاسٍ: «على خَائِنَةٍ»، أي: على مَعْصِية، وكانت خِيَانَتُهُم نقض العَهْدِ، ومظاهرتُهمْ المُشْرِكين على حَرْبِ رسُول الله - صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم - وهَمّهم بِقَتْلِهِ وسمه ونحوها من الخِيَانَاتِ الَّتي ظَهَرَتْ منهم.

وبين أن هذه الخيانة طبع اليهود، لا يغادرونها ولا تغادرهم، (وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ} يَعْنِي: مَكْرُهُمْ وغَدْرهم لَكَ وَلِأَصْحَابِكَ.)[3]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بِذَلِكَ تَمَالُؤَهُمْ عَلَى الْفَتْكِ بِالنَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[4]

وتلك من خلائقهم التي ورثوها ممن قبلهم وورَّثوها أولادهم وأحفادهم، والواقع المنظور خير دليل على ذلك.

---

١ - النكت والعيون: (٢/ ٣٢٨)

٢ - تفسير اللباب: (ص: ٤٢).

٣ - اللباب في علوم الكتاب (٧/ ٢٥٤).

٤ - تفسير ابن كثير: (٣/ ٦٦).

المبحث الثالث: طريقة التعامل مع الخائنين

المتتبع لآيات القرآن الكريم في قضية الخيانة يجد أنها رسمت في التعامل مع الخائنين منهاجا واضح المعالم بين القسمات، لو طبقته الأمة المسلمة في التعامل معهم لنجوا من تكرار الخيانة في واقعهم، ولابتعدوا عن الوقوع فيها أفرادا وجماعات، وشعوبا وحكومات؛ ذلك المنهاج الحق، والطريق الصدق يتلخص في نقطتين هما عماد صلب هذا المبحث، الأول: عدم المدافعة عنهم، والثاني: طرح عهودهم، ونبذها نبذ النواة، ورميها كلية بعد التأكد من ميلهم إلى الخيانة، وبدو آثارها عليهم، ونلمح بداية من جمع الآيات الكريمة في هذه الزاوية، زاوية منهاج التعامل مع الخائنين أنها حددت منهاج التعامل معهم: أفرادا ودولا، فالأول يتمثل في عدم المدافعة عنهم، والثاني يتمثل في طرح عهودهم ونبذ معاهداتهم، ويمكننا أن نتتبع ملامح هذا المنهاج وتفصيلاته على النحو الآتي:

المطلب الأول: عدم المدافعة عنهم

وأول طريقة من طرق التعامل مع الخائنين هي عدم المدافعة عنهم، أو التستر عليهم، حتى لا ينبت هذا الداء العضال في أوصال المسلمين، أو يعشش في بيوتهم وقلوبهم، وهو المجتمع الذي يتغيا الصفاء، ويبغي الطهر، ويسعى نحو الكمال البشري، ويبدو من ملامح الآية الكريمة التي تناولت تلك المنهجية، ومن خلال أسباب نزولها، أنها وقعت في أفراد من بين ثنايا المجتمع المسلم، قام به واحد، وشاركه آخرون، وسعى في الدفاع عنه غيرهم، فنزلت الآيات الكريمة كما سيأتي تبين للجميع منهاجية القرآن العادلة في التعامل معهم.

ولنا أن نقف أمام الآية الكريمة التي تناولت تلك المنهجية حتى يتسنى لنا تبين معالم وملامح منهجية التعامل مع الخائنين، وسنجد الآية الكريمة تخاطب الرسول ﷺ قائلة: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٠٩. النساء: ١٠٦-١٠٩.

وأول ما نقف أمامه من تلك الآية الكريمة هو سبب نزولها؛ حتى يتسنى لنا تبين الجو الذي نزلت فيه زمانا، ومكانا، وأفرادا، فقد نزلت الآية في المدينة بمجتمعها الذي يجمع أنماطا من الناس: مؤمنين ومسلمين ومشركين ويهود ومنافقين، حتى يكون هذا نموذجا للمجتمع الجامع

الذي يتعايش فيه الناس، متوحدين على قاسم مشترك، مهما تباينت رؤاهم، واختلفت توجهاتهم، وتنزل الآيات تبين الحكم الفصل الذي ينطبق على الجميع بما أن قيادة هذا المجتمع في أيدي المسلمين القيمين على البشرية بما أوتوا من مؤهلات تضعهم في الصدارة، وتعينهم على إقامة القسط والحكم بالعدل، ولو على أنفسهم والأقربين، كما سيتضح ذلك جليا في تضاعيف معالجة القرآن لهذا التعامل في قضية الخيانة.

وتذكر كتب التفسير وعلوم القرآن إجماعا على نزول هذه الآيات في طعمة بن أبيرق، كما قال الإمام الكرماني: (أجمع المفسرون على أن هذه الآيات نزلت في طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر بن الحرث، إلا ابن بحر فإنه قال: نزلت في المنافقين). . .)[١]

وفصل ابن العربي سبب النزول بأن بني أبيرق سرقوا طعام رفاعة بن زيد، واعتذر عنهم قومهم بأنهم أهل خير، فقال رسول الله ﷺ لقتادة بن النعمان ذلك، فطالبهم عن عمه رفاعة بن زيد، فقال رفاعة: الله المستعان، فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ ونصر رفاعة وأخزى الله بني أبيرق بقوله: {بما أراك الله} أي بما أعلمك، وذلك بوحي أو بنظر)[٢]

كما يتبدى أيضا من متابعة سبب النزول أن الآية نزلت نصرة ليهودي على مسلم؛ لأن الحق في جانب اليهودي، وفي ذلك من ملامح قيام الأمة الممثلة في رسولها ﷺ على إقامة الحق ما فيه، والمتأمل لسياق الآية ودلالات السياق والسباق واللحاق يجد ذلك بينا، فصدر الآية يؤكد للرسول ﷺ أنه أنزل إليه الكتاب ليحكم بين (الناس) بالحق، ولك أن تتأمل (بين الناس)، وليس بين المسلمين فقط، (إنه مطلب تكليفي من الله للمسلمين حتى يشيع في كل الناس ولا يخص المؤمنين يتعاملون به فيما بينهم، وإنما يشمل أيضا ما بين المؤمنين والكافرين، وما بين الكافرين بعضهم مع بعض إن ارتضوا حكم رسول الله، وحينما أمر الحق رسوله أن يحكم بين الناس فذلك الحكم يقتضي عدم تمييز المؤمن على الكافر؛ لأن المسلمين هم القُوَّام، وهم خير أمة أخرجها الله للناس كافة. ولو فهم الناس أن خير الأمة الإسلامية عائد عليهم لما حاربوها. فنحن - المسلمين - لسنا خيراً لأنفسنا فقط، ولكننا أمة لخير الناس جميعاً.)[٣]

---

١ - تفسير البحر المحيط أبو حيان الأندلسي: (٣/ ٢٧٩).

٢ - أحكام القرآن لابن العربي: (٢/ ٤٧٤)، أحكام القرآن للجصاص: (٣/ ٢٦٤).

٣ - تفسير الشعراوي: (٦٦٤).

وكما قال المفسرون: (وفي هذه الآية تشريف للرسول ﷺ، وتفويض الأمور إليه بقوله: لتحكم بين الناس بما أراك الله.)[١]

إن الإسلام-والقرآن دستوره الخالد- يمتلك منهاج ريادة البشرية، والقدرة على العبور بها إلى بر الأمان، دون تفريق بين دين ودين، أو جنس وجنس، أو فصيل وفصيل، إن اليهود هم من أسسوا: (ليس علينا في الأميين سبيل)، ولكن الإسلام بما أنه كلمة الله الخاتمة إلى أهل الأرض يضع قانونا عادلا، ومنهاجا وسطا، الناس جميعهم أمامه سواء.

وكما قال شوقي في همزيته:

الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء[٢]

إننا إذا تابعنا النظر في جو الآيات والصيغ البنائية التي وردت عليها نجد دون عناء مدى حقية هذا الدين وعدالة هذا المنهاج، ففي مباشرة الخطاب للنبي ﷺ بضمير المخاطب (إليك)، (لتحكم)، (بما أراك الله)، (ولا تكن للخائنين خصيما)، ودلالة (خصيم)، وهي: (يجوز أن يكون مثال مبالغة، وأن يكون بمعنى مفاعل نحو: خليط وجليس بمعنى مخاصم ومخالط ومجالس.)[٣]، (واستغفر الله)، (ولا تجادل)، ودلالة الجمع (للخائنين) مع أن من وقعت منه الخيانة فعليا واحد لكن (جاء الجمع باعتباره واعتبار من شهد له بالبراءة من قومه كأسيد بن عروة ومن تابعه ممن زكاه، فكانوا شركاء له في الإثم، خصوصا من يعلم أنه هو السارق. أو جاء الجمع ليتناول طعمة وكل من خان خيانته، فلا يخاصم لخائن قط، ولا يحاول عنه)[٤]. في كل ذلك ما يوحي بخطورة القضية، وعظم الواقعة.

إن خطابات القرآن الكريم للنبي (ﷺ) ترد في صورة حانية، هادئة، حتى في مواطن العتاب يخاطب النبي ﷺ بصيغ أهدأ وألطف، حتى يخاطبه بصيغة الغيبة في عتابه في ابن أم مكتوم: (عبس وتولى أن جاءه الأعمى)، عبس: ١، ٢.

ويقدم العفو قبل بيان العتاب في: (عفا الله عنك لم أذنت لهم)، التوبة: ٤٣، أما هنا فالخطاب بصورة مباشرة، وبصيغة لافتة.

وإذا كان هذا الخطاب والتنبيه للنبي بتلك الصورة فهو لأمته من باب أولى، (إننا نحس في التعبير صرامة، يفوح منها الغضب للحق، والغيرة على العدل، وتشيع في جو الآيات وتفيض

---

١ - أحكام القرآن لابن العربي: (٢/ ٤٧٤).

٢ - الشوقيات: ١/ ٣٩.

٣ - الدر المصون في علم الكتاب المكنون: (١٨١٦).

٤ - تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: (٣/ ٢٨٠).

منها، وأول ما يبدو هذا في تذكير رسول الله ﷺ بتنزيل الكتاب إليه بالحق ليحكم بين الناس بما أراه الله، وإتباع هذا التذكير بالنهي عن أن يكون خصيما للخائنين، يدافع عنهم ويجادل. وتوجيهه لاستغفار الله - سبحانه - عن هذه المجادلة. . . ثم تكرار هذا النهي، ووصف هؤلاء الخائنين، الذين جادل عنهم - ﷺ - بأنهم يختانون أنفسهم. وتعليل ذلك بأن الله لا يحب من كان خوانا أثيما. . . وهم خانوا غيرهم في الظاهر. ولكنهم في الحقيقة خانوا أنفسهم. فقد خانوا الجماعة ومنهجها، ومبادئها التي تميزها وتفردها. وخانوا الأمانة الملقاة على الجماعة كلها، وهم منها. . ثم هم يختانون أنفسهم في صورة أخرى. صورة تعريض أنفسهم للإثم الذي يجازون عليه شر الجزاء. حيث يكرههم الله، ويعاقبهم بما أثموا. وهي خيانة للنفس من غير شك. . . وصورة ثالثة لخيانتهم لأنفسهم، هي تلويث هذه الأنفس وتدنيسها بالمؤامرة والكذب والخيانة.)[١]

لكن هل كان هؤلاء الذين دافعوا عن أبيرق يعلمون خيانته؟

إن المفسرين يقولون: إنهم (لم يكونوا أيضا على يقين من أمر الخائن وسرقته، ولكنه لم يكن لهم الحكم جائزا على اليهودي بالسرقة لأجل وجود الدرع في داره)[٢].

وهذا يدل على أنه غير جائز لأحد أن يخاصم عن غيره في إثبات حق أو نفيه وهو غير عالم بحقيقة أمره لأن الله تعالى قد عاتب نبيه على مثله وأمره بالاستغفار منه وهذه الآية وما بعدها من النهي عن المجادلة عن الخونة إلى آخر ما ذكر كله تأكيد للنهي عن معونة من لا يعلمه حقا)[٣] @

لكن أ كان النبي ﷺ هو المخاطب أصالة بهذا الخطاب أم كان المقصود من الخطاب أمته، وصدور الخطاب بهذه الصورة لشخص النبي ﷺ مقصود به تفخيم الأمر والتنبيه على خطورته؟.

يرى بعض المفسرين أن النبي ﷺ لم يقصد شيئا من ذلك، ولا علم له بالواقعة، لولا أطلعه (تعالى)، وعليه فلا نقص في اهتمامه، ولا درك يلحقه. وأن الآية خرجت مخرج التعريف بحقيقة الأمر في النازلة. [٤]

---

١ - في ظلال القرآن: (٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

٢ - أحكام القرآن للجصاص: (٣/ ٢٦٦).

٣ - أحكام القرآن، للجصاص: (٣/ ٢٦٤).

٤ - البحر المديد: (١/ ٤٨٢).

ويرى بعضهم أن الخطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره، كقوله: فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك (والنبي لا يشك مما أنزل الله، فإن قيل: قد أمر بالاستغفار (قلنا) هو لا يوجب وجود الذنب ولا يجب أن يستغفر كما أمر في سورة الفتح بالاستغفار من غير ذنب مقدم.)[١]

وعلى كل حال فلا ينافي أن يكون الرسول مخاطبا بذلك أصالة مقامَ النبوة؛ فهو ﷺ بشر يوحى إليه، ولعل كون الخطاب له يشعر بعدالة السماء، فإذا كان القرآن قد تعامل مع أفضل الخلق بهذا فغيره من باب أولى.

كما يبدو من الآية أن من منهاج التعامل مع الخائنين عدم جواز المجادلة عنهم، وعدم جواز مجادلتهم هم عن أنفسهم، إذ كانت خائنة؛ (لها في السر أهواء وأفعال باطنة تخفى على الناس، فلا يجوز المجادلة عنها، . . . فالاعتذار عن النفس بالباطل والجدال عنها لا يجوز.)[٢]

المطلب الثاني: طرح عهودهم

أما الملمح الثاني من ملامح منهج التعامل مع الخائنين، فيكمن في طرح عهودهم، ونبذ معاهداتهم، وهذا ما بينه قوله تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨].

وهذا واضح فيه أنه في جانب الدول والأمم، حيث المعاهدات والمواثيق، وإن لم ينص المفسرون على هذا المعنى صراحة، لكن ورود العهد والنبذ والحرب وتشريد بهم من خلفهم يوحي بكونها في جانب الأمم والدول.

ومعنى انبذ إليهم على سواء: أَعْلِمْهُمْ بِأَنَّكَ قَدْ نَقَضْتَ عَهْدَهُمْ حَتَّى يَبْقَى عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِأَنَّكَ حَرْبٌ لَهُمْ، وَهُمْ حَرْبٌ لَكَ، وَأَنَّهُ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ، أَيْ: تَسْتَوِي أَنْتَ وَهُمْ فِي ذَلِكَ)[٣]

ومن تتبع كلام المفسرين في معنى (سواء)، يبين لنا أنها تدل على واحد من خمسة معاني: أحدها: على مهل، والثاني: على محاجزة مما يفعل بهم، والثالث: على سواء في العلم حتى لا يسبقوك إلى فعل ما يريدونه بك. والرابع: على عدل من غير حيف. . . أي إلى العدل. والخامس: على الوسط)[٤]

---

١ - الكشف والبيان، للنيسابوري: (٣/ ٣٨٢).

٢ - تفسير ابن تيمية: (٣/ ٢٦٤ -٢٦٦).

٣ - تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٩).

٤ - النكت والعيون: (٢/ ٣٢٨).

ومما يشعر بالجانب الحضاري في هذا الدين أن عدم حب الله للخائنين ليس مقصورا على الخائنين للمسلمين فحسب، بل مطلق الخائنين أَيْ: (حَتَّى وَلَوْ في حق الكافرين، لَا يُحِبُّهَا أَيْضًا.)[١]

ولقد عاش الجيل القرآني الفريد هذا المعنى القرآني، وطبقه في تعاملاته، حتى كانوا نماذج تحتذى للبشرية كلها، وفخرا حقيقيا لكل مسلم على كر الدهور والعصور، فعن سليم بن عامر قال: (كان معاوية يسير بأرض الروم وكان بينهم وبينه أمد فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم فإذا شيخ على دابة يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدر إن رسول الله ﷺ، قال من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء فبلغ ذلك معاوية فرجع وإذا الشيخ عمرو بن عبسة.)[٢]

والمراد من خوف الخيانة ظهور آثارها، أو الإحساس ببدايتها، وليس ظن الخيانة، وليس الانتظار حتى يتمكن الخائنون، والنموذج التطبيقي لذلك (ما حدث من بني قريظة في مظاهرتهم أبا سفيان ومن معه من المشركين، [٣] وذلك في غزوة الأحزاب.

وهذا هو ثبات المعايير، وصدق المبادئ في حضارة الإسلام، مع العدو والصديق، والقريب والبعيد، وتلك من مؤهلات الشهود الحضاري، الذي اختصت به أمة الإسلام.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله: {عَلَى سَوَاءٍ} وهنا قد كان معلوما عند الجميع غدرهم. ودل مفهومها أيضا أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.)[٤]

(إن الإسلام يعاهد ليصون عهده فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية ولم يخن ولم يغدر ولم يغش ولم يخدع وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم. فليس بينه وبينهم أمان. .

وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة. . إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ ولا يروع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من

---

١ - تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٩).

٢ - مسند أحمد: (٢٢٩/٢٨، ٢٣٠)، مسند الصحابة في الكتب التسعة: (٤٨/ ٤٣٢).

٣ - جامع البيان: (١١/ ٢٣٩)، تفسير السمعاني: (٢/ ٢٧٤) مفاتيح الغيب: (١٥/ ٤٩٨).

٤ - تيسير الكريم الرحمن: (٣٢٤)، تفسير العز بن عبد السلام: (١/ ٥٤١).

جانبهم. . فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة، لأن كل خصم قد أخذ حذره فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنما هو غافل! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة! إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع ويريد للبشرية أن تعف فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة. . إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة. . وليس مسلما من يبرر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية، لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات. . إن الشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل، فإن الشط الممرع لا بد أن تلوثه الأقدام الملوثة في النهاية. . من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة.

ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق. لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين حتى ذلك الزمان. . قانون القوة التي لا تتقيد بقيد متى قدرت.)[١]

ومن منهجية التعامل مع الخائنين التي رصدها القرآن الكريم، ودل عليها صريح الآيات وبينها سياقها أننا بعد النبذ إليهم على سواء، لابد من مناجزتهم، وعدم تركهم يعيثون في الأرض فسادا، يفرخون فسادهم، ويدبرون مكائدهم، فمن أمن العقوبة أساء الأدب، كما قالوا في أدبنا العربي، ولذلك تجد الآية السابقة عليها في نفس سياقها تقول: (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)، الأنفال: (٥٧).

والمعنى: (نكل بهؤلاء الذين جاءوا لحربك أو نقضوا عهدك تنكيلا يفرق بينهم من خلفهم من جماعاتهم.)[٢].

ذلك أن من الناس من لا يرعوي حتى يرى العقوبة ماثلة، بل في ذلك ما يجعلهم عبرة لكل من يجترأ على حرمات الديار وخفر الذمار، كما ختمت الآية ب(لعلهم يذكرون (أي لعل المشردين يتعظون بما شاهدوا ما نزل بالناقضين، فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر)[٣]

---

١ - في ظلال القرآن: (١٥٤٢/٣، ١٥٤٣).

٢ - تفسير السمعاني: (٢/ ٢٧٤)

٣ - محاسن التأويل: (٥/ ٣١٣).

وفي تذييل الآية الكريمة بعدم حب الله (تعالى) للخائنين لطائف بديعة، منها أنه تعليل للأمر بالنبذ، وأن الله (تعالى) لا يحب من كانت الخيانة طبعه، وفيه من طمأنة الرسول ومن سار على منهاجه ما فيه؛ فكون هؤلاء الخائنين محرومين من حب الله لهم يعني أنهم محرومون من الأمن والهداية، ومحرومون من النصر والغلب، وممنوعون من التمكن، فمن حرم حب الله (تعالى) حرم كل خير، وتخلت عنه كل سعادة.

كما تلمح من هذا التذييل والتعليل البديع إشارة من القرآن الكريم للرسول بمناجزة قتال الخائنين، وعدم تركهم، ما دام تيقن من عزمهم على الخيانة، ففي التذييل (تعليل للأمر بالنبذ، إما باعتبار استلزامه النهي عن مناجزة القتال، لكونها خيانة، فيكون تحذيرا له صلى الله عليه وسلم منها، وإما باعتبار استتباعه للقتال، فيكون حثا له ﷺ على النبذ أولا، وعلى قتالهم ثانيا، كأنه قيل. وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم، ثم قاتلهم)[١]

وفي ذلك بيان صريح لمنهجية التعامل مع الخائنين في المستقبل، فيا ليت قومي يعلمون، يقول الإمام أبو السعود: (الظاهر أن هذا استئناف كلام، أخبره الله تعالى بما يصنع في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر.)[٢]

بل جعلها صاحب المنار قاعدة، من (القواعد الحربية العسكرية والسياسية) التي اشتملت عليها سورة الأنفال، فقال في (القاعدة التاسعة): (وجوب معاملة ناقضي العهد بالشدة التي يكونون بها عبرة ونكالا لغيرهم، تمنعهم من الجرأة والإقدام على مثل خيانتهم بنقضهم. . . ومنه يظهر الفرق بين تعاليم الإسلام الجامعة بين الحزم والعدل، والشدة والفضل، وبين ما عليه دول المدنية الإفرنجية من القسوة والظلم.)[٣]

إننا أمام نظرية قرآنية جامعة ومنهجية متكاملة في التعامل مع الخائنين، سواء كانوا أفرادا أم دولا، وسواء كانت الخيانة مادية أم معنوية، إذا أخذ المسلمون بتلك المنهجية في تعاملهم مع هؤلاء الخائنين، كفوا شرهم، ومنعوا أذاهم، ووأدوا فتنتهم في جحرها، ودفنوها في مهدها، ولا يتنافى هذا مع السماحة والندى، فلكل حلة لبوسها، ولكل عقوبة جزاؤها، وقديما كان العرب بفطرتهم الصحيحة يتفهمون هذا المعنى، ويدركون، قيمة القوة في مكانها، والمسامحة في بابها، فقالوا: فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

١ - محاسن التأويل: (٥/ ٣١٤).

٢ - البحر المحيط في التفسير (٥/ ٣٤٠).

٣ - تفسير المنار: (١٠/ ١٢٧).

المبحث الرابع: عاقبة الخائنين

لله ﷻ في الخائنين سنن ثابتة لا تتحول ولا تتبدل، نصت عليها آيات القرآن الكريم، وتناولتها سنة الرسول ﷺ، ومن سنته في الخائنين عاقبته لهم، التي تتلاقى فيها عطاءات الكتاب المسطور مع الكتاب المنظور، حتى يبدو تنزيل النصوص على الواقع المعيش آية من آيات الله، تزيد المؤمنين بربهم إيمانا على إيمانهم، ويقينا على يقينهم، وتحدوا الشاردين إلى مراجعة أمورهم، والتبصر بمواقفهم، ومواقعهم، ومن تلك العاقبة، أنه يحرمهم من الهداية إلى الحق، فلا يبصرونه، وإن كان أبين من الصبح لذي عينين، وأوضأ من الشمس في رابعة النهار، ويحرمهم من محبة الله (عز وجل)، فيحرمون بحرمانهم من محبته كل ما يتصل بذلك الحب، من الراحة والأمان، والثبات والاطمئنان، وأنه يبطل كيدهم، ويفل حدهم، ويجعل دائرة السوء عليهم، ثم تكون نهايتهم الهلاك؛ ليكونوا لغيرهم عبرة وآية، ويمكننا أن نتناول تلك العاقبة في النقاط الآتية:

المطلب الأول: حرمان الهداية إلى الحق

ومن عقوبات الله تعالى للخائنين: أنه تعالى يحرمهم الهداية إلى الحق، والوصول إلى الصراط المستقيم، فهداية الله نوعان: هداية دلالة وإرشاد، وهداية معونة وتوفيق، فالله تعالى يهدي عباده إلى طريقه المستقيم، ويعينهم على تلك الهداية، أما الناكثون عن طريق الحق، الرافضون لمنهاج الصدق فالله (تعالى) يكلهم إلى أنفسهم، ويخليهم إلى قدرتهم، وفي ذلك يقول تعالى: (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم): يونس: ٢٥. ويقول لرسوله ﷺ: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)، القصص: ٥٦.

والآيات الكريمة في ذلك كثيرة. وقد نصت آيات بعينها على حرمان الخائنين من هداية الله، كقوله (تعالى): (وأن الله لا يدي كيد الخائنين)، يوسف: ٥٢. والمعنى: (لا ينفذه ولا يسدده. أو لا يهدي الخائنين ليكدهم. وأوقع الفعل على الكيد مبالغة)[١](أي: لا يصلح)[٢]، أو: (وأن الله لا يوفق أهل الخيانة، ولا يرشدهم في خيانتهم.)[٣].

---

١ - البحر المديد: ٣/ ١١٤. تفسير البيضاوي: (٣/ ١٦٣).

٢ - اللباب في علوم الكتاب: (١/ ٢٧٤)

٣ - التفسير الميسر: (١/ ٣٧٧).

أو أنه تعالى (لا يهدي الخائنين بكيدهم)[١] (قال السدي: يعني لا يصلح عمل الزناة)[٢]

ومن بدائع القرآن الكريم ومنهاجيته في البيان عن تلك القضية أنه أوردها بصورة قاعدية سننية، تمضي على الجميع، وتعم كل الخائنين، وهذا ما نلمحه من تذييل الآية الكريمة: (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) يوسف: ٥٢.

فهي واردة في حادثة معينة، ومع ذلك وردت في صورة عامة بتلك الصورة البنائية البيانية المعبرة.

ومن لطائف الكتاب العزيز هنا أنه عبر عن الزنا بالخيانة، ذلك أن هذا الفعل في حق الزوج خيانة، ولعل السر في التعبير بهذه الصيغة التنزه عن ذكر اللفظ في هذا المقام، وإن كان قد ورد في موطن آخر، والتنبيه على استبشاعه؛ حيث جرمه يلحق أكثر من طرف: الزوج، والولي، وكل من يهمه أمرها، بل المجتمع بأسره.

كما عبر عن تيسير الوصول بالهداية، وعبر عن تركه بتركها؛ مبالغة في بيان تلك العقوبة التي تلحق الخائنين، وتعمهم؛ (لئلا يتوهم أن الحديث عن خائن معين تعني نفسها فيصير الجمع في هذه المواطن قرينة على قصد الاستغراق. . . . فأطلقت الهداية التي هي الإرشاد إلى الطريق الموصلة على تيسير الوصول، وأطلق نفيها على نفي ذلك التيسير، أي أن سنة الله في الكون جرت على أن فنون الباطل وإن راجت أوائلها لا تلبث أن تنقشع)[٣] كما قال (تعالى): بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق (سورة الأنبياء: ١٨).

(أي: أنها أقرَّتْ بأنه سبحانه وتعالى لا يُنفِذ كيد الخائنين، ولا يُوصِّله إلى غايته.)[٤]

وفي هذا التذييل البديع طمأنة لقلوب من وقعت عليهم الخيانة، وتسرية عن نفوسهم، حيث إن الله (تعالى) وعدهم أنه لا يهدي كيد من خانهم، ولا يوليهم إلى غايتهم التي خانوا من أجلها، كما أن (فيه إشارة إلى أن الله تعالى يوصل عباده الصادقين بعد الغم إلى السرور ويخرجهم من الظلمات إلى النور)[٥]، (لا يرشد من خان أمانته، ويفضحه في عاقبته)[٦].

---

١ - النكت والعيون: (٣/ ٤٧).

٢ - تفسير ابن أبي زمنين: (١/ ٣٠٧).

٣ - التحرير والتنوير: (١٢/ ٢٩٣)، تفسير الكشاف عن حقائق الترتيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٢/ ٤٥٢)، تفسير أطفيش: (٤/ ٣٤٥).

٤ - تفسير الشعراوي: (١٦٣٥).

٥ - تفسير حقي: (٦/ ١١٩).

٦ - زاد المسير في علم التفسير: (١١٣/ ٥٢)، وتفسير مقاتل بن سليمان: (٢/ ١٥٣).

والنص على إبطال كيد الخائنين ينبه على أن غير الخائنين يهديهم الله (تعالى)، ويصلح أعمالهم؛ لأنه (تعالى) (خص الخائنين تنبيها أنه قد يهدى كيد من لم يقصد بكيده خيانة ككيد يوسف بأخيه وقوله (لأكيدن أصنامكم) أي لأريدن بها سوءا.)[١]

ومن أبرز الدلائل على عدم هداية الله للخائنين، وأنه لا ينعم عليهم بأن يكونوا في سبيله الحق، أو على طريقه المستقيم، أنه يحرمهم من اتباعه، ويخلي بينهم وبينه ولو كانت مصادر الهداية أقرب ما تكون منهم، أو كانت بواكير الوحي بين أيديهم، وفي بيوتهم، وأقرب مثال لذلك بيوت كانت بيوت النبوة، وأشخاص عاصروها، وعاشروها في حياتهم، ونزل الوحي في مساكنهم، ومع ذلك لم يتنسموا عبيره، ولم يجدوا ريحه، وليس مثال امرأة نبي الله نوح وامرأة نبي الله لوط اللتين قال الله عنهما: (كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين}، التحريم: ١٠. عنا ببعيد.

أي: (كانتا في عصمة نبيين عظيمين، متمكنين من تحصيل خير الدنيا والآخرة، وحيازة سعادتهما، {فخانتاهما} بإفشاء سرهما، أو بالكفر والنفاق، {فلم يغنيا عنهما من الله شيئا} أي: فلم يغن الرسولان عن المرأتين بحق ما بينهما من الزواج شيئا من الإغناء من عذاب الله تعالى، {وقيل} لهما عند موتهما، أو يوم القيامة: {ادخلا النار مع الداخلين} أي: مع سائر الداخلين من الكفرة، الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء.

قال القشيري: لما سبقت للمرأتين الفرقة يوم القسمة لم تنفعهما القرابة يوم العقوبة، قال ابن عطية: وقول من قال: إن في المثلين عبرة لأزواج النبي ﷺ بعيد، قلت: لا بعد فيه لذكره إثر تأديب المرأتين، وليس فيه غض لجانبهن المعظم، إنما فيه إيقاظ وإرشاد لما يزيدهم شرفا وقربا من تعظيم الرسول ﷺ وطاعته، وصيانة سره، والمسارعة إلى ما فيه محبته ورضاه، وكل من نصحك فقد أحبك، وكل من أهملك فقد مقتك.)[٢]

وليس هذا المثل خاصا بمن ضرب لهم، كعادة القرآن في منهجياته، بل عادة ضرب الأمثال في اللغة، فكل من خان وتنكب الطريق عقوبته الحرمان والتيه وعدم الدلالة وفقدان الهداية.

ففي (ضرب هذا المثل دليل على أن القرب من الأنبياء، والصالحين، لا يفيد شيئا مع العمل السيئ.)[٣]

---

١ - مفردات غريب القرآن للأصفهاني: (٤٤٣).

٢ - البحر المديد: (٦/ ٣٦٥).

٣ - التفسير الميسر: (١٠/ ١٨٧).

وتناول المفسرون هنا بتفصيل معنى الخيانة منهما والمقصود بها، ونفوا نفيا أكيدا الخيانة الزوجية لعصمة الله تعالى أنبياءه من أن تكون أزواجهم على شيء من هذا، فيقول الإمام الماوردي:

(في خيانتهما أربعة أوجه:

أحدها: أنهما كانتا كافرتين، فصارتا خائنتين بالكفر، قاله السدي.

الثاني: منافقتين تظهران الإيمان وتستران الكفر، وهذه خيانتهما قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين.

الثالث: أن خيانتهما النميمة، إذا أوحى الله تعالى إليهما [شيئا] أفشتاه إلى المشركين، قاله الضحاك.

الرابع: أن خيانة امرأة نوح أنها كانت تخبر الناس أنه مجنون)[١]

ونحن نلحظ أن محور دوران الخيانة هنا على خيانة الدين، سواء كان ذلك عن طرق عدم إيمانهما بهذا الدين، أو بالنفاق فيه، أو بالسعي بالنميمة إلى المشركين بكل ما يوحي الله تعالى به إلى نبييه، أو بالسفه على أنبيائه، واتهامهم بالجنون، ودفع الناس عن السماع لهم، والإيمان بهم، كما نلحظ تناسب الجزاء مع العمل، فهم وقفوا دون بلاغ الرسالة إلى الناس، فكان عاقبتهم أن يحرموا خير هذه الرسالة، ولو كان حاملها اقرب الناس إليهم، وتلك سنة الله التي لا تتبدل في عباده، وميزانه الحق الذي لا يميد ولا يحيد.

فهم مع قربهما من مصدر الوحي، وصلتهما بمنبع الرسالة لم يغنيا عنهما من الله شيئا؛ (تنبيها بذلك على أن العذاب يدفع بالطاعة دون الوسيلة.)[٢]، ودخلتا النار (مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام)[٣].

وفي ذلك بيان واضح لمن أراد أن يذكر، وعبرة لمن أراد أن يعتبر، وورود هذا المثل بعد أن ذكر في صدر السورة ما يتعلق بأزواج النبي ﷺ إشارة إلى أنهن لا ينفعهن قربهن من النبي دون عملهن وطاعتهن، (وكذلك كفار مكة وإن كانوا أقرباء النبي ﷺ لا ينفعهم صلاح النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك أزواجه إذا خالفنه)[٤]

---

١ - النكت والعيون: (٦/ ٤٦).

٢ - النكت والعيون: (٦/ ٤٧).

٣ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي: (٤/ ٤٣)، بحر العلوم: (٣/ ٤٤٩).

٤ - تفسير ابن كثير: (٨/ ١٧١)، تفسير السمرقندي (٥/ ٤٦٦)، تفسير البيضاوي (٥/ ٣٥٨) تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٣/ ٤٤٨، تفسير القرطبي: (١٨/ ٢٠٢).

وفي ذكر المثل في الآية الكريمة دليل على عموم القاعدة، وسننية القضية، وأنه ينسحب حكمها على كل من جمع صفاتها، يقول الخازن: (وهذا مثل ضربه الله تعالى للصالحين والصالحات من النساء وأنه لا ينفع العاصي طاعة غيره ولا يضر المطيع معصية غيره وإن كانت القرابة متصلة بينهم وأن القريب كالأجانب بل أبعد وإن كان القريب الذي يتصل به الكافر نبياً)[١]

وهذه لمحة من لمحات العدالة المطلقة في شريعة الإسلام فلا قرب ولا بعد إلا بالعمل، ولا نسب ولا شرف إلا برضا الله (تعالى)، كما أنها سمة من سمات **التأهل للشهود الحضاري**، وريادة البشرية على منهاج عدل، (فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلا بالله وحده على أيدي رسله فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوصلة التي كانت بين لوط ونوح وامرأتيهما فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا {قِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ.)[٢]

وتلك (سنة الله فيمن توغل في الظلم والشر والفساد أنه يحرم التوبة فلا يموت إلا كافرا)[٣].

المطلب الثاني: حرمان محبة الله ﷻ

ومن أقسى عقوبات الله تعالى للخائنين: أنه يحرمهم محبته، ويمنعهم مودته، تلك المحبة التي هي سبب كل خير، وعدمها سبب كل بلاء وضر.

ومحبة الله معناها: (مراعاته لهم.)[٤]، أو هي: (حالة لا يعبر عنها مقالة.)[٥]

وقال صاحب البصائر: (ولا يُحدّ المحبّة بحدّ أَوضح منها، والحدود لا تزيدها إِلاَّ خفاءً وجفاءً فحدّها وجودها. ولا توصف المحبّة بوصف أَظهر من المحبّة، وإِنَّما يتكلَّم النَّاس في أَسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأَحكامها)[٦]

وقد نصت آيات القرآن الكريم على تلك العقوبة، فقد أمر (تعالى) رسوله(ﷺ) في تعامله مع من يخاف خيانتهم أن ينبذ إليهم عهده١م على بيان ووضوح؛ ذلك أن الله (تعالى) لا يحب الخائنين، فقال تعالى: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)، الأنفال: (٥٨)

---

١ - تفسير الخازن: (٧/ ١٢٣).

٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين: (١/ ٢٢٢).

٣ - أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: (٣/ ٢٦٥).

٤ - المفردات في غريب القرآن: (٨٦٠).

٥ - التوقيف على مهمات التعاريف: (٢٩٩).

٦ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (٢/ ٤١٦).

وقال في بيان سبب من أسباب مدافعته عن المؤمنين: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)، الحج: (٣٨)

وقال في سبب نهيه عن المجادلة عن الذين يختانون أنفسهم: (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا) النساء: (١٠٧)

أي: (لا يرضى فعلهم، وهو تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال)[١]

فالله لا يحبهم؛ (لأنهم متصفون بالخيانة فلا تستمر على عهدهم فتكون معاهدا لمن لا يحبهم الله؛ ولأن الله لا يحب أن تكون أنت من الخائنين)[٢]

وموقع التذييل هذا من الآية وروده عقب هذا الأمر بمناجزتهم والمنابذة إليهم على سواء مشعر بعلية عدم حب الله للخائنين، ويحتمل أن تكون تلك الجملة الكريمة تعليلا معنويا للأمر بنبذ العهد على عدل، وهو إعلامهم، وأن تكون مستأنفة سيقت لذم من خان رسول الله (ﷺ) ونقض عهده.)[٣]

ومن روائع المنهاج القرآني أنه أورد صيغة عدم الحب خالية عن تحديدها حتى تكون عامة شاملة، سواء كانت تلك الخيانة في حق المؤمنين أو في حق الكافرين، أي: (حتى ولو في حق الكافرين، لا يحبها أيضا.)[٤].

وفي ذلك من خصائص السننية من الاطراد والعموم والشمول ما فيه.

كما أن في ذلك من دلالات تهيئة الأمة للشهود الحضاري ما لا يخفى؛ فالإسلام-والقرآن دستوره- ينهى عن الخيانة ولا يحب أصحابها، ولو كانت في حق الكافرين، ويؤمر نبيه بأن ينبذ إليهم على سواء، ولا يباغتهم قبل أن يعرفوا نقض عهدهم، وعلى سواء بما تحمله تلك الكلمة من بيان، أي على وضوح وجلاء، أو: (بحيث يصل الخبر إليهم ويستوون في معرفته)[٥]

(وحاصل الكلام في هذه الآية أنه تعالى أمره بنبذ من ينقض العهد على أقبح الوجوه وأمره أن يتباعد على أقصى الوجوه من كل ما يوهم نكث العهد ونقضه)[٦]

---

١ - البحر المديد: (٢/ ٣٦٨).

٢ - التحرير والتنوير: (١٠/ ٥٣).

٣ - الدر المصون في علم الكتاب المكنون: (٣٠١٨)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٥/ ٨٤).

٤ - تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٩).

٥ - صحيح البخاري: (٣/ ١١٥٩)

٦ - تفسير الرازي: (٧/ ٤٢١)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٢/ ٤٠١).

وعاش أصحاب النبي ((ﷺ) تلك القيم عيشة حقيقية واقعية لفتت أنظار العدو قبل الصديق، إلى ربانية هذا الدين، ومثله العليا التي لا تقوم أخلاقه على نسبية تختلف من شخص إلى آخر ولا من جنس إلى جنس، ولا من دين إلى دين بل الكل أمام القيمة سواء، فقد (روي أنّ معاوية كان بينه وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدراً، فإذا هو عمرو بن عنبسة، فأرسل إليه معاوية يسأله فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذ عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء" فرجع معاوية)[١]،

ويؤكد هذا الفهم أن القرآن الكريم قال في موطن آخر: {إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ} [النساء: ١٠٥].

(تلاحظ أن الآية لم تقل: بين المؤمنين، ولكن قالت: (بَيْنَ النَّاسِ)؛ حتى لا تكون هناك تفرقة في العدل بين مؤمن وغير مؤمن، فغير المؤمن مخلوق لله، استدعاه الله إلى هذا الوجود، وسبحانه قد أعد له مكانه في هذا العالم؛ لذلك لا بد أن تراعي العدل معه في كل الأمور ولا تظلمه بل تعطيه حقه؛ لأنك بذلك تكون أنت مددا من إمدادات الله. وقد كان هذا السلوك العادل الذي أمر به الله سبباً في دخول عدد كبير في الإسلام.)[٢]

كما تلمح شدة بيان القرآن عن حرمانهم محبة الله (تعالى) من تركيب الجملة وسياقها، وقد أكد نفى محبة الله تعالى للخيانة (بالجملة الاسمية، وب " إن "، ونفى المحبة أبلغ في النهى؟ لأن محبة الله مطلوبة فإذا كانت الخيانة لا تؤدى إليها فهي منهي عنها نهيا شديدا مؤكدا.)[٣]

كما تلمح بلاغة الآية وعمق دلالتها عن دفاع الله عن المؤمنين وعدم حبه للخائنين من ترتب الجملة الاستئنافية المبدوءة بإن كأنها تعليل لما سبق في صدر الآية كما قال صاحب التحرير والتنوير: و(تعليل الدفاع بكونه عن الذين آمنوا، بأن الله لا يحب الكافرين الخائنين، فلذلك يدفع عن المؤمنين لرد أذى الكافرين: ففي هذا إيذان بمفعول) يدافع (المحذوف، أي يدافع الكافرين الخائنين.)[٤]

---

١ - تفسير السراج المنير لمحمد الشربيني: (١/ ٤٥٦)، وانظر: مسند أحمد (٣٩/ ١٢٩) مسند الصحابة في الكتب التسعة (٤٥/ ٤٩٨)، سنن الإمام سعيد بن منصور (ص: ٣٤٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين: (١/ ٤٠٢)، زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزي: (٥/ ٨٠)، في مثل هذا المعنى.

٢ - تفسير الشعراوي: (١٢٠٥).

٣ - زهرة التفاسير، لمحمد أبي زهرة: (٣١٧٢).

٤ - تفسير التنوير والتحرير، لابن عاشور: (٢٤/ ٨٣).

وتلمح بلاغتها أيضا في حذف مفعول (يدافع) في صدر الآية (فلم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم، وإن كان في الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين، فلذلك قال بعده: (إن الله لا يحب كل خوان كفور)؛ (فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار)[١].

وهي بشرى واضحة للمؤمنين الذين ابتلوا بالخيانة ممن ائتمنوهم، ووثقوا فيهم، بأن الله سيحفظهم وسينصرهم على هؤلاء الخائنين؛ فتلك سنة الله (تعالى) التي لا تتخلف ولا تتبدل.

وبتلك المناهج التي يربي الإسلام عليها أتباعه يعلي قيمة البشرية، ويرسخ معنى الحضارة الحقة التي تمسك بمقود العالم، فلا يظلم فيه فقير لحساب غني، ولا يهان فيه ضعيف إرضاء لقوي؛ لأن صاحب المنهاج هو رب البشرية، وسيد العالمين، الإله الحق الذي خلقه كلهم عنده سواء، وفضله عليهم كلهم سواء.

(إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع؛ ويريد للبشرية أن تعف؛ لا يبيح الغدر في سبيل الغلب؛ وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد؛ ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود؛ ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة. . إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ؛ ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة. . وليس مسلما من يبرر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية، لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات.

إن الشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل؛ فإن الشط الممرع لا بد أن تلوثه الأقدام الملوثة في النهاية. . من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة. . . وفي مقابل هذه النصاعة وهذه النظافة يعد الله المسلمين النصر، ويهون عليهم أمر الكفار والكفر!)[٢]

والمبالغة في لفظة (خوّان) ليست على بابها، فليس المراد نفي المحبة عن الخوان فتثبت للخائن، بل المراد أن المشركين خوانون، أو (لأن خيانة أمانة الله (تعالى) وكفران نعمته لا

---

١ - اللباب في علوم الكتاب: (١٤/ ٩٩). تفسير الرازي: (١١/ ١٢٣).

٢ - في ظلال القرآن، لسيد قطب: (٣/ ٤٣١).

يكونان حقيرين بل هما أمران عظيمان أو لكثرة ما خانوا فيه من الأمانات وما كفروا به من النعم أو للمبالغة في نفي المحبة على اعتبار النفي أولا وإيراد معنى المبالغة ثانيا)[١]

وقد تكون صيغة المبالغة للنسب، فشملت ما لا مبالغة فيه، أو مراعاة الحال من الآية في شأنه... وذكر الإثم بعد الخيانة مبالغة)[٢].

ومما يؤيد نصرة الله (تعالى) لمن وقعت في حقه الخيانة، وينصره على الخائنين، الإذن بالقتال بعد نفي المحبة عن كل خوان كفور، وتلك سنة الله في الخيانة، لا تتبدل ولا تتغير، (وما دام هناك الخوَّان والكفُور فلا بُدَّ للسماء أنْ تُؤيّد رسولها، وأنْ تنصره في هذه المعركة أولاً، بأنْ تأذنَ له في القتال، ثم تأمره بأخذ العُدة والأسباب المؤدية للنصر، فإنْ عزَّتْ المسائل عليكم، فأنا معكم أؤيدكم بجنود من عندي.)[٣]

وفي هذه الآية إشارة لطيفة بترك المدفوع عن المؤمنين عاما مطلقا، وجعل سياقها يشير إلى الخيانة، وذلك بشارة عظيمة للمؤمنين الذين يتعرضون للخيانة، بأنه عز وجل متكفل بالدفاع عنهم.)[٤]

إن لطف الله بعباده دائم، شامل، سواء عن طريق محبتهم وتأييدهم، أو عن طريق رصده لأعدائهم، فهو (تعالى) متكفل بالدفاع عنهم، ونصرتهم على أعدائهم، وتلك سنة الله الماضية، وناموسه الباقي، ما بقيت على الأرض حياة وأحياء.

المطلب الثالث: إبطال كيدهم.

ومن عقوبات القرآن الكريم للخائنين أن الله (تعالى) يبطل كيدهم، ويفل حدهم، ولا ينيلهم مبتغاهم، حتى وإن بدا للناظر المتعجل أنهم وصلوا إلى غايتهم، وظفروا بمنيتهم، ونالوا ما يصبون إليه، فمقاييس الحق غير مقاييس الباطل، وغايته غير غايته، وقد ومضت سنة الله (تعالى) بذلك، كما نصت الآيات الكريمة عليه.

نصت الآيات الكريمة على تلك العقوبة.

لقد عبر القرآن الكريم غِب كيد امرأة العزيز على لسانها عن ذلك فقالت: (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين): (يوسف: ٥٢).

---

١ - تفسير الألوسي: (١٣/ ٧٤)، تفسير البحر المحيط أبو حيان الأندلسي: (٦/ ٢٧٠).

٢ - تفسير أطفيش: (٢/ ١٦٤).

٣ - تفسير الشعراوي: (٢٦١٥).

٤ - موسوعة البحوث والمقالات العلمية: (٦٤/ ٣).

ومعنى عدم هداية كيدهم يبين سننية القرآن الكريم في إبطال كيدهم، فعدم هداية كيدهم يعني: أنه (لا ينفذه ولا يسدده. أو لا يهدي الخائنين ليكدهم. وأوقع الفعل على الكيد؛ مبالغةً)[١]

وأتت الآية الكريمة مبينة استغراق الأمر لجميع الخائنين ب(ال) التي تفيد الاستغراق، إضافة إلى ورودها بصيغة الجمع؛ (لئلا يتوهم أن الحديث عن خائن معين. . فيصير الجمع في هذه المواطن قرينة على قصد الاستغراق.)[٢]، فكل خائن بهذه الصورة لا يصل إلى مبتغاه، مبتغاه، ويبطل الله كيده، وتلك سنة الله الماضية، وقانونه الدائم في الخلق.

أو المعنى: (أن الله لا يوفق أهل الخيانة.)[٣]، وعدم توفيقهم وإرشادهم فيه إبطال لكيدهم، فمن يهديهم أو يرشدهم بعد أن خلاهم الله وحرمهم الرشاد والهداية؟

أو المعنى: (لا يُوصِّله إلى غايته.)[٤]، وإذا لم يصل إلى غايته فقد بطل، وفشل، ولم يحقق غايته. أو أن المعنى: (لا يصلح)[٥]، وفي عدم صلاحه إبطال له.

أو المعنى: (قال: لا يقرب".)[٦]، فكيف يصل من لا يقرب؟

أو المعنى: (لا يرشد من خان أمانته)[٧]، وما دام فقد إرشاد الله له فكيف يصل إلى مبتغاه، أو أو ينال مناه؟

وقد دلت الآية الكريمة على عدد من الدلالات فيما يخص إبطال الكيد، منها: أنهم يفتضحون في الدنيا قبل الآخرة، وأن الله يخليهم لذواتهم، ويتركهم لقدراتهم البشرية، فلا يعينهم ولا يرشدهم، ولا يهديهم ولا يسدد فعلهم، ومبالغة في نفي وصول الخائنين غلى مبتغاهم، أو تحصيلهم نوالهم وردت الصيغة البنائية في الآية الكريمة بهذه الصورة، موقعة الفعل على الكيد، لا على الفعل، فلم يقل القرآن الكريم لا يهديهم او لا يهدي فعلهم، بل لا يهدي كيدهم؛ كأن الكيد نفسه، لن يهتدي، بل ه مثل أصحابه تائه ضال، لن يصل إلى غايته، فهو مبطل من البداية.

---

١ - البحر المديد: (ج ٣/ ص ٣٩٣)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: (ج ٢/ ٤٥٢)، الجامع لأحكام القرآن - (ج ٩/ ص ٢٠٩).

٢ - التحرير والتنوير: (ج ١/ ص ٣٥٣).

٣ - التفسير الميسر: (ج ٤/ ص ١٥٢).

٤ - تفسير الشعراوي: (ج ١/ ص ٤٤٢٧).

٥ - اللباب في علوم الكتاب: (ج ١/ ص ٢٧٤).

٦ - تفسير ابن أبي حاتم: (٤/ ٣٤٥)، تفسير السمعاني: (٧/ ٤٥٠).

٧ - الوجيز للواحدي - (ج ١/ ص ٥٥٠).

كما قال علماء التفسير: (أوقع الفعل على الكيد مبالغة)[١]، فسبحان من هذا كلامه.

المطلب الرابع: الإهلاك

ومن عقوبات الله تعالى للخائنين أنه يعاجلهم بالهلكة، ويمكن منهم من نقضوا عهده وخانوه، ووردت الآيات الكريمة مبينة ذلك ومن ذلك قوله تعالى: (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)، الأنفال: (٧١).

لقد وعد الله رسوله بأنه (تعالى) يتمكن من الخائنين، ويقهرهم ويخزيهم، وينصرك عليهم، وهذه سنة ماضية في الناس إلى يوم القيامة؛ لأن من سنته (تعالى) في الخائنين – كما سبق- أنه لا يحبهم، ولا يهديهم، ويعاجلهم بالعقوبة، ومعنى أمكن منهم أي: (أمكنكم أنتم أيها المؤمنون منهم فقتلتموهم وأسرتموهم.)[٢]

والتذييل في الآية الكريمة له دلالة بديعة كعادة القرآن في تذييله؛ حيث ورد هنا صفتان من صفات الله (تعالى)، هما (عليم)، (حكيم)، وهما –كما لا يخفى- متناسبتان تمام التناسب مع الوعد بالإمكان من الخائنين؛ فهو عليم بهم، حكيم في تمكينك منهم؛ حتى لا يعلو الباطل على الحق، وحتى تمضي سنة الله تعالى في ردع الخائنين، والإمكان منهم.

وقد فعل (تعالى) بالمشركين في بدر(فأمكنك-يا رسول الله- منهم وأظهرك عليهم يوم بدر، حتى قهرتهم وأسرتهم. {والله عليم} بخلقه، {حكيم} حيث أمكنك منهم، يعني إن خانوك أمكنتك منهم، لتفعل بهم مثل ما فعلت من قبل.)[٣]

وهذا من روائع القرآن الكريم وأسراره في التعبير؛ إذ يعبر عن المعنى بلفظ محدد له ظلال مقصوده، وهذا ما يسميه البلاغيون: العدول، حيث يترك القرآن لفظا ويعبر بآخر اختيارا لما للمختار من دلالة تتناسب مع السياق والمعنى المقصود للآية.

وفي ذلك من التطيب والتسرية والتطييب بالتهنئة والطمأنة ما فيه؛ (بأن ضمن لهم، إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأن الله يمكن المسلمين منهم مرة أخرى، كما أمكنهم منهم في هذه المرة، أي: إن ينووا من العهد بعدم العود

---

١ - تفسير البيضاوي: (ج ١/ ص -٢٩٤)، تفسير الألوسي: (ج ٧/ ص ٢٠٨).

٢ - أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: (٣/ ٢٧٦).

٣ - بحر العلوم للسمرقندي: (٢/ ٢٠٩)، التحرير والتنوير: (١٠/ ٨٢)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (٥/ ٩٠)، لباب التأويل في معاني التنزيل: (٢/ ٣٢٩)، محاسن التأويل: (٥/ ٣٢٩).

إلى الغزو خيانتك، وإنما وعدوا بذلك لينجوا من القتل والرق، فلا يضركم ذلك، لأن الله ينصركم عليهم ثاني مرة.)[١]

وقد تطابق المسطور والمنظور في ذلك، في تمكين الله (تعالى) رسوله ﷺ ممن خانوه بعد وعد بعدم القتال ضده، كالشاعر ابن عزة الجمحي، (فإنه سأل النبيّ ﷺ المنّ عليه بغير شيء؛ لفقره وعياله، وعاهده على أنه لا يظاهر عليه أحداً، ثم خان فظفر به في غزوة حمراء الأسد عقب يوم أحد أسيراً، فاعتذر له وسأله العفو عنه فقال: "لا، لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرّتين وأمر به فضربت عنقه.)[٢]

وكما ورد الوعد بالإمكان منهم هنا ورد في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)

وفي الآية الكريمة وعد بالدفاع عن الذين آمنوا، وتعليل لهذا الدفاع بأنه لا يحب كل خوان كفور.

وفي تذييل الآية (إن الله لا يحب كل خوان كفور) (تعليل لما في ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين وإيذان بأن دفعهم بطريق القهر والخزي. وقيل: تعليل للدفاع عن المؤمنين ببغض المدفوعين على وجه يتضمن أن العلة في ذلك الخيانة والكفر، وأوثر {لا يحب} على يبغض تنبيها على مكان التعريض وأن المؤمنين هم أحباء الله تعالى)[٣]

ومما يؤيد تأييد الله (تعالى) لمن وقعت في حقه الخيانة، وأنه ينصرهم على الخائنين، ويهلك هؤلاء الخونة بمغبة أفعالهم، إذنه (تعالى) للمؤمنين بالقتال، وتلك سنة الله في الخيانة، لا تتبدل ولا تتغير، (وما دام هناك الخوَّان والكفُور فلا بُدَّ للسماء أنْ تُؤيّد رسولها، وأنْ تنصره في هذه المعركة أولاً، بأنْ تأذنَ له في القتال، ثم تأمره بأخذ العُدة والأسباب المؤدية للنصر، فإنْ عزَّتْ المسائل عليكم، فأنا معكم أؤيدكم بجنود من عندي.)[٤]

وفي هذه الآية إشارة لطيفة بترك المدفوع عن المؤمنين عاما مطلقا، وجعل سياقها يشير إلى الخيانة، وذلك بشارة عظيمة للمؤمنين الذين يتعرضون للخيانة، بأنه عز وجل متكفل بالدفاع عنهم.)[٥]

---

١ - التحرير والتنوير: (١٠/ ٨١)، البحر المديد: (٢/ ٣٧٦).

٢ - تفسير السراج المنير: (١/ ٤٦١).

٣ - تفسير الألوسي: (١٣/ ٧٤)، تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: (٦/ ٢٧٠).

٤ - تفسير الشعراوي: (٢٦١٥).

٥ - موسوعة البحوث والمقالات العلمية: (٦٤/ ٣).

إن هلاك الخائنين ليس في الدنيا فقط، بالنصر عليهم وقهرهم وخزيهم، بل في الآخرة أيضا، حتى يقال لهم: ادخلوا النار مع الداخلين، وقد أكد القرآن الكريم ذلك، حتى مع من كانوا أشد الناس قربا من المرسلين، كامرأة نوح وامرأة لوط، إذ قال الله(تعالى) فيهم صراحة: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِينَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)

لقد جعلهم الله مثلا يضرب، ونموذجا مطلقا على هلاك الخائنين مهما كانت مكانتهم، ومهما كان قربهم؛ (لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق، وبتّ الوصل وجعلهم أبعد من الآمال، وإن كان المؤمن الذي يفصل به الكافر سائر أنبياء الله بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما خانتا ونافقتا الرسولين عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الأزواج أغنى من عذاب الله، وقيل لهما عند موتهما أي يوم القيامة ادخلا النار مع سائر الداخلين الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء ومع داخلها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط)[١]

وبذلك وضع القرآن قاعدة عامة في هلاك الخائنين مهما كانوا، بل صيرهم مثلا لغيرهم، (وقطع الله بهذه الآية طمع كل من يركب المعصية أن ينفعه صلاح غيره، ثم أخبر أن معصية غيره لا تضره إذا كان مطيعا)[٢]

ويبين الإمام البقاعي (رحمه الله) سر القاعدية والسننية في هذا الإهلاك للخائنين، في الدارين، وضرب الله بهم مثلا، وأنهم لم تنفعهم قراباتهم، كما لا تضر المسلمين قراباتهم من الكافرين بأنه: (لما كان أمر الاستئصال في الإنجاء والإهلاك أشبه شيء بحال أهل الآخرة في الدينونة بالعدل والفضل، وكان المفتتح به السورة عتاب النساء، ثم أتبع بالأمر بالتأديب لجميع الأمة إلى أن ختم بهلاك المخالف في الدارين، وكان للكفار قرابات بالمسلمين وكانوا يظنون أنها ربما تنفعهم، وللمسلمين قرابات بالكفار وكانوا ربما توهموا أنها تضرهم، قال مجيباً لما يتخيل من ذلك تأديباً لمن ينكر عليه (ﷺ) من النساء وغيرهن ضرب الله الثل بهؤلاء في عدم انتفاعهم مع كفرهم بما بينهم وبين المؤمنين من الوصل والعلائق فيغلظ عليهم في الدارين معاملة بما يستحقون من غير محاباة لأحد وإن جل مقامه، وعلا منصبه ومرامه)[٣].

ومن لطائف التعبير القرآني الكريم أنه لم يقل تحتهما، بل وصفهما بوصف العبودية، فقال: (تحت عبدين) إشعارا بأن هؤلاء المرسلين عبيد لمرسلهما، وهو بهم عليم وخبير، فهم

---

١ - تفسير الأعقم: (٢/ ٢٣١).

٢ - تفسير البيضاوي: (٥/ ٣٥٨).

٣ - نظم الدرر: (٨/ ٥٧).

يستحقون نصرته وتأييده، كما تشعر الإضافة إلى ناء العظمة بتولي الملك الدفاع عنهما، ومجافاة عدوهما، كما وصفهما بقوله: (من عبادنا)، بما يشعر بكثرة هؤلاء العبيد، كما أن وصفهما بالعبودية (أفخم، فيكون أشد تأثيراً للمواعظ وأعظم، ودفعاً لأن يتوهم أحد بشيء لا يليق بمقامهما عليهما الصلاة والسلام فقال: (تحت عبدين)، أي كل واحدة منهما تحت عبد)[١]

ومن لطائف البيان القرآني هنا أنه جمعهما جمع ذكور، فقال: (مع الداخلين)، وفي ذلك إشارة إلى أنهما كما بذلا جهدا فوق طاقة المرأة وخرجتا عن التبعية إلى الاستقلال في الشر، وفعلتا فعل غير جنسهما جمعتا جمع الذكور، يقول الإمام البقاعي (رحمه الله): (لما فعلتا فعل الرجال في استقلالهما، وعدم عدهما لأنفسهما تبعاً، غلظ عذابهما بالكون مع الرجال في عذابهم، فقال دالاً على نفوذ الحكم فيمن هو أقوى منهما بعد نفوذه فيهما: (مع الداخلين) أي الذين هم أعظم منهما ممن لهم وصلة بأهل الله وممن لا وصلة لهم بهم)[٢]

وتلك عقوبات الله تعالى للخائنين، حرمان من الهداية، وحرمان من محبة الله تعالى ومودته، وإبطال كيدهم، وإهلاك لا يتخلف ولا يتأجل، وتلك سنن الله الماضية، وعقوبته العاجلة، وناموسه الذي لا يتخلف، فليتعظ من خان ربه أو رسوله أو أمانة أو عرضا وليبادر بالتوبة النصوح قبل حلول الأجل، فسنة الله لا تنتقي ولا تنتخب، بل ماضية ما مضى الجديدان، دائمة ما كر الملوان، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

المبحث الخامس: آثار الخيانة على الفرد والمجتمع

المتتبع لآيات القرآن الكريم والرابط بينها وبين الواقع المعيش يدرك مدى فداحة أثر الخيانة وضررها على مستوى الفرد، وعلى مستوى المجتمع، ويمكننا أن نحصر آثار الخيانة في مطلبين:

المطلب الأول: آثار الخيانة على الفرد المطلب الثاني: آثار الخيانة على المجتمع

ونتناول ذلك على النحو الآتي:

المطلب الأول: آثار الخيانة على الفرد

خلق الله الإنسان بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله خليفته في أرضه، وزوده بمقومات الحياة الصحيحة الراقية، التي تعينه على تعبيد نفسه بحق له (عز وجل)، فأمره بالأمانة ونهاه عن الخيانة بشتى صورها ومختلف أنواعها، فجاءت شياطين الإنس

---

١ - نظم الدرر: (٨/ ٥٧).

٢ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٨/ ص ٥٨.

والجن فاغتالته، ونصبت له الشراك، ولوحت له بصور يظن فيها المهارة والذكاء، وهي صور من الخيانة المتردية سواء لله ورسوله، أو للدين أو للعرض، أو لنفسه وجوارحه، أو للأمانة، أو للعهد، وترتب على ذلك آثار تخصه هو، ويعود ضررها عليه نفسه، ومن أبرز تلك الآثار ما يأتي:

١- تشويه الفطرة النقية التي جبل عليها، وخلقه الله بها، فهو مفطور بداية على الصفاء والنقاء، والأمانة وعدم الخيانة، وبوقوعه فيها يشوه تلك الفطرة التي جبله الله عليها.

٢- أنه يحرم نفسه الهداية، مهما كان قربه من مصادرها، وهل هناك نموذج في القرب أقرب من امرأة نوح وامرأة لوط، اللتين لم يغنيا عنهما من الله شيئا، فهما أكيلتان وشريبتان لاثنين من أعظم الأنبياء، ولخيانتهما لم ينتفعا بهذا القرب، ولم ينعما بالهداية التي هي سر استقرار النفس البشرية وهنائها.

٣- الشقاء في الدنيا؛ ذلك أن الخائن يخُوِّن دائما ويظل في شك في كل من حوله، وهذا يخالف فطرة الإنسان الكائن الاجتماعي الذي يحب المخالطة والمعايشة، فيعيش معزولا عن بني جنسه بينه وبينهم أسوار وأسوار، حتى يصبح سجينا في مكان كبير.

٤- وأسوأ أثر من آثار الخيانة على الفرد أنه يحرم محبة الله (تعالى)، تلك المحبة التي تهنأ بها نفسه، ويستقر بها باله، فيصلح حاله وباله بها، وبفقدانها يتخلى عنه صلاح الحال والبال.

٥- حرمان الأمان النفسي والاستقرار المجتمعي؛ حيث إن الخائن لا يكون مرتاحا لمن حوله، بل يفترض أن الناس جميعا مثله فيظل قلقا شاكا في كل الناس.

٦- أنه يفقد كل شخص حوله ائتمانه على شيء، مهما قل؛ ذلك أنه أصبح معدوم الثقة بين الناس فلا يأتمن ولا يؤتمن، وفي ذلك من فقد الإنسانية التي هي خصيصة الإنسان وقوام كونه إنسانا، ما فيه.

٧- أنه يمهد لغيره سبيل الخيانة بعده، فوقائع التاريخ تؤكد أنه ما من خائن إلا ووقعت عليه الخيانة أيضا من غيره، وهكذا تصبح البشرية سلسلة من الخيانة، يبوء الأول بإثمها، ويحمل دوما كفلها.

المطلب الثاني: آثار الخيانة على المجتمع

أما آثار الخيانة على المجتمع فهي وخيمة وبيلة؛ ذلك أن ضررها عام، وخطرها شامل، وشرها لا يتوقف عند فرد أو أسرة، أو مجموعة من الناس، وتبدو آثار الخيانة على المجتمع في النقاط الآتية:

١- أن المجتمع الذي تظهر فيه الخيانة وتنتشر، مجتمع تعمه الفوضى، ويسوده المصلحة الخاصة، ويتكالب عليه الأعداء من كل جانب؛ ذلك أن أفراده طعمة سائغة لمن يريد أن يستخدمهم ضد أوطانهم، كما تعيش بلاد كثيرة، فيعملون ضد أنفسهم، وعكس اتجاه مصالح أهليهم وذويهم، وأناء أوطانهم.

٢- أنه مجتمع لا يأمن أفراده، ولا يستقر لهم قرار؛ لأن الكل يتوقع الخيانة من أقرب الناس إليه، فلا يكون هناك أمان ويعيش الناس في جزر منعزلة، بعيدا عن الاندماج الحقيقي الذي هو عماد الحضارة، وقرين التقدم.

٣- أنه على مستوى المجتمعات المجاورة لا يأمنون جانبهم، ولا يطمئنون لهم؛ بل سيكونون منهم على وجل؛ فمن يخن بني وطنه يكن أشد خيانة لمن بعدهم.

٤- أنه سبب لهلاك المجتمعات؛ لأنه لن يكون هناك دولة مستقرة، ولا حضارة قائمة، ومن ثم يتهاوى المجتمع وينحدر ويعود إلى حياة الفردية والبداوة.

٥- أنه عرضة للهلاك والعقاب الإلهي فقد توعد الله الخائنين بالهلاك والدمار.

٦- أنهم عرضة لغضب الله تعالى حسب سنن الله الماضية، ونواميسه الحاكمة.

٧- أنهم يحرمون محبة الله تعالى وهدايته، وأي عقوبة أشد من هذا الحرمان، وأقسى من هذا الغضب.

الخاتمة؛ أسأل الله حسنها

وبعد. . . فهذه الرحلة في صحبة القرآن الكريم حول قضية من أخطر القضايا التي تعيش أمتنا العربية والإسلامية ويلاتها، وهي قضية الخيانة سواء كانت على مستوى الأفراد أم على مستوى المؤسسات أو الدول، وقد بان من تلك الرحلة أمور كثيرة في ثنايا الدراسة وأطوائها، من أهمها ما يأتي:

١- عناية القرآن الكريم بتلك القضية حيث وردت في العهدين المكي والمدني وبصيغ متعددة وبيانات متغيرة؛ لفتا لأنظار الناس إليها وتنبيها إلى خطرها وضررها.

٢- أن الخيانة تنوعت صورها، وتباينت ألوانها، من خيانة لله والرسول، إلى خيانة للدين أو العرض أو النفس أو الأمانة والعهد، ووقعت في الماضي وتقع في الحاضر

وستقع في المستقبل، وعلى الأمة المسلمة أن تتنبه إليها، وتستعد لها فليس من الحصافة الصبر حتى وقوعها، بل يتوجب عليها اجتثاث أسبابها، وإزالة دواعيها منذ البداية.

٣- كما بان من تتبع القضية أن القرآن الكريم وضع منهجية كافية في التعامل مع الخائنين فرادي ومجموعين، يتمثل في عدم الدفاع عنهم، ونبذهم وإنكارهم حتى يثوبوا إلى رشدهم، وإن كانوا دولا فيتمثل في طرح عهودهم والنبذ إليهم على سواء.

٤- أن الخائنين ينالون عقابهم في الدنيا والآخرة، من حرمانهم هداية الله ومحبته، وأن كيدهم باطل، أما عقوبتهم في الآخرة فهلاك محقق ونار تلظى.

٥- أن آثار الخيانة وخيمة، وعاقبتها وبيلة، على الفرد والمجتمع، وهنا لون من إعجاز القرآن بديع في تلاقي المسطور مع المنظور بما لا يدع مجالا ولو للحظة في أن هذا الكتاب كلام اللطيف الخبير.

ومن هنا يتحتم علينا أن نوصي بالآتي:

١- أهمية توعية الأجيال والمجتمعات بقضية الخيانة وبيان ضررها وخطرها على كل المستويات.

٢- عدم المدافعة عن الخائنين أيا كانوا، أفرادا أو مؤسسات أم دولا، فضلا عن مساندتهم ودعمهم والوقوف خلفهم؛ خوفا من عقاب الله وسخطه ونزع بركته، وبعدا عن سبب من أسباب الهلاك في الدنيا والآخرة.

٣- تبني مفاهيم القرآن ومصطلحاته ومنهجياته في التعامل مع الأشياء فقد جربنا كثيرا من المنهجيات وثبت فشلها؛ فالقرآن ليس كتاب وعظ وتذكرة فقط بل منهاج حياة ودستور بشرية، طبقته أجيال فسعدت وسادت، وتخلى عنه آخرون فكان من حالهم ما لا يخفى على ذي عينين.

٤- أن يكون للمؤسسات العلمية التي تملك الرؤية القرآنية رأي ومهمة في قضايا الأمة الخطيرة التي لا يتوف ضررها على أصحابها فقط بل تمتد إلى عموم المسلمين وان يجأروا بهذه الرؤية بيانا لكلمة الله ووفاء للميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم أن يبينوه للناس ولا يكتمونه.

٥- نشر ما تتمخض عنه البحوث والدراسات القرآنية عامة، وما يخص واقعنا خاصة بين الناس حتى لا يكون حبيسا بين طلاب العلم فقط، بل يمتد ليشمل المجتمع حتى يفيد هذا المجتمع من نتاج أبنائه، وعطاء القرآن الكريم.

أهم المراجع والمصادر

١- الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

٢- أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ

٤- إعلام الموقعين عن رب العالمين: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الجيل - بيروت، ١٩٧٣، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد

٥- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

٦- بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ).

٧- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

٨- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، لحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩ هـ

٩- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

١٠- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

١١- التفسير الميسر: مجموعة من العلماء - عدد من أساتذة التفسير تحت إشراف الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

١٢- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

١٣- تفسير الشعراوي – الخواطر: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، (ليس على الكتاب الأصل - المطبوع - أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام ١٩٩٧ م)

١٤- تفسير القرآن العزيز: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ)، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الناشر: الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م
١٥- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ
١٦- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
١٧- تفسير القرآن: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م
١٨- تفسير الماوردي = النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.
١٩- تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م
٢٠- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م.
٢١- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
٢٢- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ
٢٣- الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، ت حقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م،
٢٤- الدر المنثور: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت.

٢٥- زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ
٢٦- زاد المعاد في هدي خير العباد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م
٢٧- روح البيان: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (المتوفى: ١١٢٧هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت
٢٨- سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي
٢٩- سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت،
٣٠- سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: ، أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م
٣١- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
٣٢- الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.
٣٣- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ
٣٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ، الكتاب مذيل بحاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الإسكندري (ت ٦٨٣) وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعي]
٣٥- الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م.

٣٦- لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ
٣٧- اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨
٣٨- محاسن التأويل: المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
٣٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ
٤٠- المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: خليل إبراهم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م
٤١- المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠
٤٢- مجموع الفتاوى: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: أنور الباز - عامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م
٤٣- معالم التنزيل في تفسير القرآن: لمحيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ
٤٤- معجم الفروق اللغوية، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ«قم»، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ
٤٥- معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٤٦- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ

٤٧- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ
٤٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت – ١٤١٥، هـ - ١٩٩٥ م
٤٩- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار النشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ
٥٠- الوسيط في تفسير القرآن المجيد: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب، العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.